

بادلو فرايري

تعليم المقرئين

ترجمة وقدم له
الدكتور يوسف نور عوض

دار الفقه الإسلامي
بيروت - لبنان

طبعة الفرح

الاهداء

الى المقهورين والذين يقاسون معهم ويحاربون الى جانبهم

المؤلف

مقدمة المؤلف

هذه الصفحات التي أكتبها مقدمة « لتعليم المقيهورين » هي نتيجة ملاحظاتي خلال الست السنوات التي عانيت فيها ظروف الوعي السياسي ، وهي ملاحظات أثرت - بلا شك - خبرتي السابقة والتي اكتسبتها في مجال التعليم في البرازيل ، فلقد عرفت من « الكورسات » التي تحلل دور الوعي وتجربتي العملية معنى مفهوم « الخوف من الحرية » الذي عاجلته في الفصل الاول من هذا الكتاب . فليس من النادر أن يظهر الطلاب خوفهم من الوعي الذي يكشف عن خوفهم من الحرية ، فكثيرون منهم يقولون : « ان الوعي الناقد يزلزلهم » ويقول بعضهم ، ان هذا الوعي كفيلا بأن يقودهم الى الفوضى ، وبرغم ذلك فلن نعدم واحداً منهم يقول : لماذا أنكر ؟ لقد كنت خائفاً من الحرية أما الآن فإني لست خائفاً منها .

لقد كانت إحدى المجموعات تناقش ما اذا كان الوعي ببعض صور الظلم يقود الى عصبية يدمرون بها ذلك الوضع أم يقودهم الى الاحساس الشامل بانتيار عالمهم ؟

لقد قال أحد الرجال - وقد عمل لعدة سنوات في أحد المصانع - خلال المناقشة : « ربما كنت الوحيد هنا الذي ينحدر من أصل عمالي وعلى الرغم من أنني لا أستطيع أن أدعي أنني فهمت كل ما قلموه الآن ، فإنني أستطيع أن أقول شيئاً واحداً هو أنني عندما بدأت هذا الكورس كنت ساذجاً وبمجرد احساسني بهذه

السذاجة شعرت بأنني أتعلم النقد وأستطيع أن أقول إن تعلمي النقد لم يجعلني متعصباً ولم يجعلني أشعر بالانقياد .

ويتبين من ذلك ، أن الرجال لا يستطيعون دائماً أن يوضحوا الشكوك التي تساورهم حول الآثار المترتبة على عملية الوعي ، ولذلك فمن المستحسن ألا يتعرف ضحايا الظلم على أنفسهم من هذه الزاوية ، وفي الحقيقة فإن الوعي لا يمكن - بحال من الأحوال - أن يقود الرجال الى عصبية مدمرة ، بل على العكس من ذلك فإن دخول الرجال في العملية التاريخية كصانعين لها من خلال وعيهم بدورهم فيها يساعدهم في البحث عن تأكيد أنفسهم وبذلك يتجنبون أي نوع من التعصب

« ان يقظة الحس النقدي تؤدي بالضرورة الى اظهار الرفض الجماعي لأن ما يرفضونه أثر من آثار مجتمع القهر »

وعلى الرغم من ان الكثيرين لا يتبينون خوفهم من الحرية على الوجه الصحيح فإن هذا الخوف يساعد صاحبه على ألا يرى سوى الاشباح ، ولذلك فهو يطلب لنفسه الامن الذين يفضلهم على ارتكاب المخاطرة من أجل تحقيق حريته وكما يقول هيجل في ظاهرة العقل

« انه فقط وبالمخاطرة بالنفس تتحقق الحرية للانسان ، وعلى الرغم من أن الانسان الذي لا يجرّد حياته قد يعترف به الناس « شخصاً » فإن مثل هذا الانسان لا يستطيع أن يمارس حقيقة وجوده كشخص الا حين يتحلّى بالوعي الذاتي »

ولما كان الناس قليلاً ما يعترفون بخوفهم من الحرية فهم يميلون دائماً الى تمويه هذه الحقيقة ، ربما دون وعي في بعض الاحيان - بتنصيب أنفسهم مدافعين عنها ، فالذين يخافون الحرية يحاولون دائماً أن يغلفوا شكوكهم في اطار من العقلانية والتدبر العميق الذي هو في حقيقته خوف من الحرية وفي معظم الاحيان فإن هؤلاء لا يرغبون للحرية أن تؤثر على وضعهم الاجتماعي الثابت فاذا كان الوعي يشكل تهديدا لهذا الوضع فإنه بالتالي في نظرهم تهديد للحرية ذاتها .

ويمكنني أن أقول ان « تعليم المقهورين » لم يخرج نتيجة الدراسة والتفكير وحدهما ، ذلك أنه مبني على أوضاع حقيقية ، فهو يصف موقف العمال - زراعاً كانوا أم صناعاً - وموقف الطبقة الوسطى التي لاحظتها بصورة مباشرة أو غير مباشرة خلال تجربتي التعليمية ولا شك أن الاستمرار في الملاحظة سوف يهينني على تطوير النقاط التي عالجتها في هذا الكتاب عندما أتناولها في دراسة قادمة وإنني لعلّ يقين من أن ما كتبه سيقابل بشيء من الرفض من قبل بعض القراء الذين يعتبرون موقفني من مسألة تحرير الانسان مجرد فرضية نظرية ، أو الذين يعتبرون مناقشي لامكان تحلي الانسان بروح الحب والحوار والتواضع والرحمة والامل موقفاً رجعياً ، وقد يرفض بعضهم بندي لتلك الاوضاع التي لا يستفيد منها الا الفاهرون ، لكل ذلك فإنني أقول بأن عملي هذا موجه الى الراديكاليين على الرغم من أن المسيحيين والماركسيين سيختلفون معي سواء كان ذلك بصورة شاملة أو جزئية . فإنهم سيظلون يقرأون كلامي الى النهاية ، أما الذين سيقفون مني موقفاً لا عقلانياً متعصباً فسيفضون الحوار الذي آمل ان يثريه هذا الكتاب ، ذلك أن المذهبية التي يغذيها التعصب عقبة تحول بين الانسان والفهم ، أما الراديكالية فلأنها تتحلى بروح النقد فانها ذات طبيعة ابداعية .

وإذا كانت المذهبية القائمة على التعصب تؤدي الى التغريب بما تفرزه من خرافات وأساطير ، فإن الراديكالية تزيد من التزام الفرد بالموقف الذي اختاره ، ولذلك فهو يجد نفسه مستغرقاً في العمل من أجل تغيير الواقع الموضوعي ، وعكس ذلك تماماً ، فلأن المذهبية تموه الواقع ولا تستند على أسس عقلية فإنها تنجح الى التزييف والتزوير وهي في كل الظروف تمثل عقبة كأداء في طريق تحرر الجنس البشري ، ولكن ذلك لا يعني أن النزعة الراديكالية في جميع الظروف تتمخض عن عمل ثوري اذ ليس نادراً أن يتحول الثوريون الى رجعيين بعد وقوعهم في إسار المذهبية وذلك خلال عملهم في مواجهة المذهبية اليمينية ، غير أن هذا الامكان يجب ألا يجعل « الراديكاليين » يستجيبون لنزعات الصفوة المتسلطة ، ذلك أن الانسان عندما يلتزم بالعمل التحريري لا يمكن له أن يظل سلبياً في مواجهة العنف . ومن الجانب الآخر ، فإن « الراديكالي » لا يمكن له أن يكون أنانياً ، فهو لا تظهر ذاتيته

الا حين يلتزم بالفعل أو الموضوع ، فالذاتية والموضوعية هي علاقة جدلية تمده بطاقة المعرفة من أجل مزيد من التأسك والوحدة مع الآخرين في العمل والعكس بالعكس .

وفي ضوء هذا يبدو أن المذهبية - بصرف النظر عن منطلقاتها - هي في حقيقتها ضرب من العمل وتعطيل للعقل ، ولما كان المذهبي غير قادر على رؤية ديناميكية الواقع فإنه يسيء فهمه ، وحتى لو حاول أن يفكر بأسلوب جدلي فإن جدليته تكون من النوع المدجن ، فالمذهبي اليميني والذي اسميته في بعض كتاباتي - المولود على تلك « الشاكلة » إنما يرغب في تعطيل حركة التاريخ رغبة منه في تدجين الزمن ، أما المذهبي اليساري فإنه يشتط حين يحاول فهم الواقع والتاريخ بأسلوب جدلي ولذلك فإنه كثيراً ما يواجه مواقف قاضية . ويختلف المذهبي اليميني عن المذهبي اليساري في أنه يريد أن يدجن الحاضر حتى يولد المستقبل كما يأمل على صورته أما اليساري فإنه يعتبر المستقبل حتماً ومضيقاً ، وإذا كان اليميني يرى الحاضر موصولاً بالماضي كقدر لا يمكن رده فإن اليساري يرى في المستقبل واقعاً حددت هويته من قبل ولا يمكن تغييره على الإطلاق . وفيما يبدو فإن كلا اليساري واليميني رجعيان في نظريتهما ذلك أنهما يبتدئان من تصور مزيف للتاريخ ، فكلاهما ينكر مفهوم الحرية ، فأحدهما ينظر الى الحاضر نظرة مثالية والآخر يعلق كل اماله على المستقبل ولا يعني ذلك سوى أحد أمرين إما أن يقلع الناس عن أي عمل مؤلمين أن يستمر الحاضر المثالي وإما ان يقلعوا عن ذلك أيضاً منتظرين لمستقبل قد تم تحديده فيما قبل ولا سبيل الى صنعه ، وفي إطار هذا الانغلاق اليقيني يأسر كل منهما نفسه في تصور خاص للواقع لا يمكن أن يتهرب منه ليرى أن العالم إنما يتغير بواسطة الرجال الذين يحاربون جنباً الى جنب ليتعلموا كيف يبنون المستقبل الذي لم تحدد هويته فيما قبل بل هو ينتظر الرجال كي يبدعوه ، وهكذا يتبين لنا ان كلا المذهبيتين يتعاملان مع التاريخ وكأنه ملكية خاصة قابلة للتحقيق بدون الرجال وهذه صورة أخرى من صور وقوفهم الى جانب مجتمعات القهر .

وإذا كان اليميني بانغلاقه في داخل الحقيقة التي كونها لنفسه لا يفعل أكثر من

أداء دوره الطبيعي ، فان اليساري الذي يصبح مذهبياً ومتحجراً فإنه بلا شك يعارض طبيعته وكلاهما يشعران بالتهديد عندما يحاول أحد أن يفند معتقداتهما في معرفة الواقع لان كلا منهما يعتقد أن ما يخالف مذهبه في تصور الحقيقة إنما هو ضرب من الكذب ، وكما قال الصحفي « مارسيموريرا الفس » فان كليهما يعانيان من غياب الشك »

أما الراديكاليون فبسبب انحيازهم لحرية الانسان فلا يسمحون لتصوراتهم أن تكون رهنا لدائرة مغلقة تحبس الحقيقة في داخلها بل على العكس من ذلك فكلما ازدادت راديكالية الانسان كلما ازداد حبه لمعرفة المزيد عن الحقيقة وبذلك يستطيع أن يقوم بدور التطوير على أحسن وجه ، فالراديكالي لا يخاف المواجهة او الاستماع حياً في كشف المزيد عن حقيقة العالم وهو أيضاً لا يخاف مقابلة الناس أو الدخول في حوار معهم ، لانه لا يعتبر نفسه مالكاً للتاريخ أو محرراً للمقهورين وانا يعتبر نفسه محارباً في صفوفهم في اطار العمل التاريخي .

وهكذا فان تعليم المقهورين الذي سطرت مقدمته في الصفحات التالية إنما هو عمل يقوم به الراديكاليون ولا يمكن أن يقوم به المذهبون وسأكون سعيداً عندما أجد من بين قراء هذا الكتاب من يصححون أخطائي وسوء فهمي ليلبثوا الامور التي لم أتعرض لها أو يعمقوا تأكيدها - وقد يوجد من يتساءل عن أهليتي في مناقشة كيفية العمل الثقافي الثوري انطلاقاً من اعتقاده بعدم خبرتي في هذا النوع من العمل ومن حقي أن أقول ان عدم اشتراكي في عمل ثوري مباشر لا يجردني من رؤيتي في هذا الامر وأضيف أن خبرتي كمعلم مارس مع الناس أسلوب التعليم الحوارى وطرح المشكلات قد أمدتني بثروة مناسبة من الفكر تجعلني أجروء على خوض هذا الموضوع .

وأرجو من خلال هذه الصفحات أن تبقى على الأقل ثقتي في الناس وإيماني بالرجال الذين سيقومون بخلق العالم الجديد الذي يسوده الحب وهنا يحق لي أن أشكر « الزا » زوجتي التي كانت أول من قرأ هذا العمل على حسن تفهمها وتشجيعها في اظهاره ، وهذا العمل هو أيضاً عملها كما أشكر جماعة من الأصدقاء

قاموا بالتعليق على الأصول وأخص منهم «جودافيجا» و«وريتشارد شول» و
«جيم لامب» و«ميرا» و«جوفيلينوراموس» و«باولو دي تارسو» و«المينو
افونسو» و«بلينو سامبايو» و«أرناني ماريا فيوري» و«مارسيلا قاجاردو» و
«حوزي لويس فيوري» و«جوزاكار يوتي»

وانني التحمل بالطبع المسئولية كلها وحدي

المؤلف

الفصل الأول

تعليم المقهورين

احتلت قضية الأنسنة من الناحية الأخلاقية المركز الرئيسي في اهتمام الانسان ، وعلى الرغم من أنها ما تزال تحتل قدراً كبيراً من الاهتمام- لا يمكن تغافله- فإن هذا الاهتمام يقودنا بالضرورة الى الاعتراف بما يناقضها وهي ظاهرة « اللأنسنة » - ليس بصفتها امكاناً بل بكونها حقيقة تاريخية - فعندما يستجلي الانسان حقيقة « اللأنسنة » يساوره سؤال حول ما اذا كانت الانسنة في حد ذاتها أمراً يمكن تحقيقه بصورة كاملة ، ذلك أن النظر الموضوعي لحقائق التاريخ يؤكد أن كلا الانسنة واللائنسنة امكانان في نظر الانسان المدرك لحقيقة نقضه . وبينما تشكلان خيارين متمايزين فإن الأنسنة هي أهم مجال يعمل فيه الانسان ، برغم ما تواجهه قضيتها من رفض متعمد ومستمر لها ، فهي ما تزال تروّج تحت وطأة الظلم والاستغلال والقهر والعنف الذي يمارسه القاهرون . وعلى الرغم من ذلك فإن حقيقتها تتأكد بنداات المقيهورين للحرية والعدالة ونضالهم المستمر من أجل استعادة انسانيتهن الضائعة ، فاللائنسنة لا تميز حقيقة أولئك الذين سلبوا انسانيتهن فحسب بل أيضاً وبطريق أخرى حقيقة أولئك السالبيين ، ذلك أن اللأنسنة في جوهرها اخلال بقدرة الانسان على أن يمارس وجوداً بشرياً متكاملأ . ومثل هذا الاخلال كثيراً ما يحدث في التاريخ ، ولكنه لا يشكل في جوهره حتمية تاريخية ذلك أن اعتبار اللأنسنة حتمية تاريخية إنما يؤدي الى الجنون أو اليأس الكامل ، ولا يخفى تأثير ذلك على القيمة المعنوية لمفاهيم الانسنة وحرية العمل وتجاوز الغربة من أجل تأكيد حقيقة الانسان . وهنا يحق لنا أن نقول : ان النضال من أجل الأنسنة يصبح ذا جدوى فقط عندما ندرك أن اللأنسنة برغم أنها ظاهرة في التاريخ فهي لا تشكل حتمية مصيرية ، فهي مجرد ظاهرة مؤقتة تعكس الظلم المكرس بالقوة في أيدي القاهرين ويمارسه هؤلاء ضد المقيهورين ، ولما كان هذا الاخلال يحول دون التحقيق الكامل لأنسنة المقيهورين فسرعان ما يبدأ هؤلاء - تحت وطأة الاستلاب - الاحساس

بحاجتهم الى النضال ضد أولئك الذين حالوا دون ممارستهم لوجودهم الانساني الكامل ، غير أنه من أجل أن يصبح هذا النضال ذا جدوى فإن على المقيهورين الا يمارسوا في النهاية دور القاهرين ، بل عليهم أن يدافعوا عن انسانيتهم وانسانية قاهريهم في نفس الوقت ، ذلك أن المضطهدين الذين يمارسون القهر والاستلاب والاغتصاب بفضل ما يتمتعون به من قوة ، لا يمكنهم وهم تحت نشوة الاحساس بالسلطة تحرير أنفسهم أو تحرير مقيهوريهم ، فالقوة التي تنبع من ضعف المقيهورين هي وجدها الكفيلة بتحقيق الحرية لهم ولغيرهم . ولما كانت أي محاولة يقوم بها القاهرون من أجل تخفيف سطوتهم على المقيهورين هي نوع من الكرم الزائف المقترن دوماً باستمرار الظلم ، فيجب التنبيه الى أن مثل هذا الكرم الزائف لا يزدهر الا في اطار نظام اجتماعي غير عادل يتسم بالموت واليأس والفقر ، فالكرم الحقيقي هو الذي يتجسد في محاربة وتخطيم الاسباب التي تزدهر في بيئتها ظواهر الكرم الزائف ، ذلك أن مثل هذا النوع من الكرم يغفل ايدي الخائفين والمحطمين والمسيئين المرتعشة ، أما الكرم الحقيقي فهو الذي يجعل تلك الايدي تمتد طويلاً ، لا من أجل التسول بل من أجل مزيد من العمل الانساني الموعد بتغيير الحياة .

ويبدو من ذلك أن الدرس وتجربته لا بد أن يأتيا من قبل المقيهورين والذين يتعاطفون معهم ، ذلك أن النضال من أجل استعادة انسانية المقيهورين هو في واقعه امتلاك لناحية الكرم الحقيقي ، فمن أفضل من المقيهورين في معرفة حقيقة مجتمع الاضطهاد ؟ ومن أكثر من المقيهورين يعاني ويلاذ ذلك المجتمع ؟ بل من أحق من المقيهورين في فهم حاجتهم الى تحقيق الحرية ؟ بيد أن الحرية لا تتحقق بالصدفة ، وانما بالنضال المدرك لضرورة تجسيدها ، وهو نضال أساسه الحب ويقف في كل الظروف تقيضاً لشعور العنف والكراهية اللذين تعتمل بهما قلوب القاهرين .

« حقاً فإن بعض المقيهرين - خلال مرحلة النضال - بدلاً من أن يناضلوا من أجل تحقيق حريتهم فانهم ينجحون الى ممارسة دور القاهرين وأشباههم وهذا المظهر في واقعه انعكاس للواقع المتناقض الذي ظلوا يعيشون فيه ، فقد حلم هؤلاء بأن يصبحوا رجالاً ولكن صورة الرجل ظلت في مخيلتهم هي صورة القاهر ، لأن هذا

هو المعنى المتجسد لمفهوم الإنسانية في تصورهم ، وتفسير ذلك أن المقهورين في مرحلة من مراحل حياتهم يحسون بشيء من التوافق مع قاهريهم فلا يكادون يحسونهم خارج أنفسهم ، ولا يعني ذلك أنهم لا يعرفون واقعهم الحقيقي بل يعني أن تصوراتهم قد أضعفت بحقيقة الاضطهاد الذي يعانونه في كل يوم بدرجة جعلتهم لا يشعرون بضرورة النضال من أجل تغيير التناقض القائم بينهم وبين مضطهديهم . انهم لا يطمحون في هذه المرحلة في تحرير أنفسهم بل يكتفون بتمييزها كطرف آخر من العملية ، وهكذا فإنهم لا يستطيعون رؤية الانسان الجديد الذي سيولد من ازالة التناقض القائم بسبب وضعهم الحالي ، فالانسان الجديد نظرهم انما هو صورة أخرى من صور قاهريهم ، وهكذا تتسم رؤيتهم للانسان بالفردية التي تحول دون تمييزهم لأنفسهم بعيداً عن تصورهم لقاهريهم ، فهم يشعرون في تمييز انفسهم كأفراد مضطهدين أو متهمين الى طبقة مضطهدة ، فاذا أرادوا الاصلاح الزراعي فليس من أجل أن يصبحوا أحراراً بل من أجل أن يصبحوا ملائكة أو بتعبير أدق من أجل أن يصبحوا رؤساء على غيرهم اذ من النادر أن يجد فلاحاً يرقى الى مرتبة الاشراف على زملائه ولا يصبح طاغية بأكثر مما كان عليه صاحب الأرض نفسه ، فطبيعة القهر الذي عاناه الفلاحون تفرض عليهم مثل هذا الواقع وطبيعة القهر هي التي تفرض على الفلاح أن يكون مقتنعاً بقدرته على ممارسة الرئاسة حتى يمارس القسوة يمثل ما كان يمارسها صاحب العمل . وهذا يؤكد ما قررناه سابقاً من أنه خلال مرحلة النضال فان المقهورين يرون من نماذج القاهرين تجسداً لرجولتهم الضائعة ، وحتى الثورات التي تستهدف تحرير المقهورين فانها تقع في نفس المأزق حين يحاول المقهورون المسهمون فيها أن يخضعوها لتصوراتهم أو يمتلكوها كإنجاز خاص بهم ، فهؤلاء المقهورون يظلون دائماً أسرى لاشباح قاهريهم السابقين .

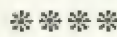
ويبدو من ذلك أن الخوف من الحرية هو الذي يجعل المقهورين راغبين في انتحال أدوار القاهرين وهو الذي يجعلهم قانعين بدور المقهورين وذلك ما يجب أن نتفهمه جيداً . وهنا يتضح لنا أن من أهم الأمور التي تحدد العلاقة بين القاهرين والمقهورين هو عامل التوقيف . وما تعنيه بالتوقيف هو فرض موقف ما على اختيار

رجل آخر من أجل تدجينه كي يتوافق مع الموقف المتغلب . وهكذا فإن موقف
المقهورين يكون دائماً منسجماً مع الملامح العامة لخصائص القاهرين وبمجرد أن
يمثل المقهور دور القاهر ويحتفظ بملاحمه داخل نفسه يغدو خائفاً من الحرية ،
فالحرية تقتضي أن ينزع المقهور صورة القاهر من قلبه ويحل مكانها ذاتيته الخاصة
واحساسه بالمسئولية ، فهي تنتزع ولا تمنح ولأجل أن تبقى فلا بد أن يتعهدا
الانسان بالرعاية المسؤولة ، فالحرية ليست مطمئناً يعيش خارج الانسان أو فكرة
تتحول الى أسطورة وانما هي في الحقيقة ضرورة لا غنى عنها من أجل كمال الانسان .

وهكذا فلأجل أن يتغلب الانسان على ظروف القهر فان عليه ان يتعرف على
أسبابه حتى يتمكن من تطوير موقف جديد يحقق فيه انسانيته الكاملة ، وعلى الرغم
من أن ظروف القهر قد فرضت واقعاً لا انسانياً على المقهورين والقاهرين في نفس
الوقت ، فان على المقهورين مسؤولية نضالية من أجل استعادة انانيتهم المفقودة
وذلك أمر لا يستطيعه القاهرون لانهم لوثوا أنفسهم باضطهاد الآخرين . ولكن
علينا أن نعلم أيضاً أن المقهورين الذين أقلموا أنفسهم مع ظروف القهر لن يكون في
مقدورهم النضال من أجل الحرية ما ظلوا يشعرون في قرارة أنفسهم بأنهم غير
قادرين على القيام بمخاطرها ، ولعل نضال هؤلاء لا يهدد القاهرين فحسب بل يهدد
زملاءهم في القهر أيضاً ولكن عندما يشعرون بدافع الى التحرر فسترداد قناعتهم بأن
هذا الشعور لن يأخذ طريقه الى الواقع الا حين يصبح هدفاً لجميع المقهورين . أما
وهم مقيدون بعقدة الخوف من الحرية فانهم لا يستطيعون الاستجابة الى نداءات
الآخرين او نداءات أنفسهم وسيفضلون حياة القطيع على الزمالة الحقة أو لعلمهم
يفضلون التوافق مع واقعهم غير المتحرر على ذلك الابداع الجماعي الذين يتحقق لهم
بفضل الحرية أو النضال من أجلها .

ويبدو من ذلك أن المقهورين يعانون من ازدواجية انغرست في ضمائرهم ،
فعلى الرغم من أنهم يشعرون بأنهم من غير الحرية لا يستطيعون تحقيق وجودهم
الذاتي فانهم في نفس الوقت يخشون الحرية ويزاوجون بين احساسهم الخاص
واحساس القاهر المتمثل في ضمائرهم وهكذا يحدث الصراع بين أن يكونوا أنفسهم

وأن يكونوا قاهريهم ، بين أن يتزعوا شخصية القاهر من ضمايرهم وبين أن يقبوا عليها ، بين أن يحققوا تكاملهم الانساني وبين الابقاء على غربتهم الذاتية ، بين أن يقبلوا التوقيف وبين أن يمتلكوا حرية الاختيار ، بين أن يصبحوا متفرجين وبين أن يصبحوا ممثلين ، بين أن يلعبوا دورهم الحقيقي وبين أن يلعبوا دور قاهريهم، بين أن يتكلموا بصراحة وبين أن يلزموا الصمت مكبلين طاقاتهم في الابداع واعادة الابداع من أجل بناء عالمهم الجديد ، تلك هي أزمة القهורים المأساوية وهي التي يجب ان يحفل بها نوع التعليم الذي يتدربون عليه .



سوف يحفل هذا الكتاب ببعض الوجوه التي أسميتها « تعليم القهורים » وهو نوع من التعليم حرى بأن يصاحب القهורים خلال نضالهم المستمر من أجل استعادة انسانياتهم ، وطريقتي تعتمد على تجلية القهر أمام القهורים حتى يتسنى لهم النضال من أجل اكتساب حريتهم ، ولا شك عندي أن هذه الطريقة سوف تولد مرات ومرات خلال عملية النضال . أما المشكلة الرئيسية في هذا الكتاب فتتركز حول سؤال أساس وهو . كيف يستطيع القهורים المقسمون والذين لا يشعرون بوجودهم المتحقق ان يسهموا في تطوير أسلوب تعليمي يستهدف تحريرهم ؟

والاجابة عندي هي أنهم بمجرد أن يكتشفوا حقيقة أنفسهم كرهائن في أيدي القاهرين يبدأون مخاضاً سيسفر ولا شك عن ولادة حريتهم ولا بد لنا أن نعلم ان هذا المخاض سيتعثر كثيراً اذا ظل هؤلاء يمارسون ازدواجية الكينونة ، فمثل هذه الممارسة تحول بينهم وبين الاسهام الفعال في مخاض الحرية ، ويتأكد من ذلك أن تعليم القهורים هو أداة نقدية يكتشف بها القهורים حقيقة أنفسهم وحقيقة قاهريهم كضحايا للنزعات اللاانسانية ، فالحرية ولا شك مخاض مؤلم ، غير أن الانسان الذي سينبتق في أجوائها هو ولا شك كائن جديد يتمتع بانسانيته أو بمعنى آخر هو كائن سيقضي على التناقض القائم في علاقة القاهرين والمقهورين، ذلك أن عمل الانسان الجديد سيكون مستغرقاً في تحقيق مزيد من الحرية، وينبغي الا يكون

هذا الامل مطمئناً مثالياً بل يجب أن يأخذ طريقه الى الواقع، وسبيل المقيمين الى ذلك هو أن يشنوا حربهم من أجل الحرية ، ومتى أدرك هؤلاء حقيقة الاضطهاد وعرفوا أنه مجرد عقبة يمكن تجاوزها ، كان ذلك بداية عملهم في طريق النضال ، وإذا كنا نركز على ضرورة مثل هذا الادراك ، فإننا لا نعتبره وحده كافياً من أجل تحقيق الحرية ، فلا بد أن يصبح الادراك قوة فعلية تحرك عملية النضال، فمجرد احساس المقيمين بأنهم يعيشون في علاقة جدلية يمثل وجودهم فيها التقيض المضاد لوجود القاهرين هو في حد ذاته ضرب من التحرر ، ولكن المقيمين لا يستطيعون تجاوز تناقضاتهم الا حين يقودهم هذا الاحساس الى بدء النضال من أجل حريتهم ، وليس الأمر كذلك بالنسبة للقاهرين ، ذلك أن احساس القاهر بكيونته كقاهر يسبب له ضيقاً ولكن هذا الضيق لا يقوده الى أن يتفاعل مع المقيمين في حركة واحدة ، فالقاهر تحت ضغط الاحساس بالذنب قد يجعل من سلوكه أبوياً تجاه المقيمين ولكنه لن يفعل شيئاً لخراجهم من دائرة الاعتماد عليه ، فالتفاعل مع المقيمين يتطلب عملاً لا يتقنه القاهرون لأنه يدخلهم في دائرة أولئك الذين يختلفون عنهم ، وإذا صدق القول بأن الذي يميز المقيمين هو خضوعهم للاحساس بوجود السيد كما يقول هيجل ، فإن الالتحام الحق مع هؤلاء يعني النضال الى جانبهم لتغيير الحقيقة الموضوعية التي جعلتهم يعيشون ضمن غيرهم . ولا يستطيع القاهر أن يظهر تضامنه مع المقيمين الا حين يتوقف عن اعتبارهم طائفة مبهمه ويبدأ في النظر اليهم كأفراد عوملوا بظلم وسلبوا أصواتهم بل وخذعوا في بيع أعياضهم . هذه هي اللحظة التي يتوقف فيها القاهر عن استخدام عواطفه وانفعالاته الخاصة للمغامرة في تمثيل دور الحب، ذلك أن التضامن لا يوجد الا في حقيقة هذا الموقف الجمالية وهي حقيقة تؤكد ان الرجال بشر ومن حقهم أن يتحرروا .

وما دام تناقض القاهر والمقيمين قائماً فإن من حقنا أن نبين أسباب هذا التناقض بشيء من الموضوعية وهنا لا بد لنا من التأكيد على أن الموقف الثوري يتطلب من الذي يكتشف في نفسه صفة القهر أو الانقهار أن يعدل موقفه لتطوير الموقف الأفضل ، ولكي يتحقق هذا الموقف الثوري في الحياة الواقعية علينا ان نعترف بذاتية

النضال من أجل التغيير ، ذلك أنه من غير المعقول أن يرى الانسان موضوعية انجازته دون احساسه الذاتي بذلك ، فحيث توجد الذاتية توجد الموضوعية ويستحيل توحيد الذاتية والموضوعية في موقف واحد لأن كليهما يتداخلان في علاقة جدلية متصلة . ان انكار أهمية الذاتية في عملية تغيير العالم والتاريخ هو ضرب من السذاجة والسطحية وهو كالاعتراف بالمنحيل أو كالاعتراف بعالم من غير مجال ، فالعالم والرجال يتفاعلان معاً ولا يمكن أن ينفصلا ، فلم ينكر ماركس هذه العلاقة المتفاعلة بين العالم والانسان كما لم ينكرها أي مفكر آخر ، فما نقده ماركس وحاول أن يحطمه بتنهجه العلمي ليس هو الذاتية أو السايكلوجية كظواهر لازمة بل كغايات يفسر بها العالم ، فكما أن الحقيقة الاجتماعية الموضوعية لم توجد بالصدفة بل وجدت كنتيجة لجهود الانسان كذلك فإن عملية التغيير لا تتم بالصدفة بل تتم نتيجة لجهود الانسان ، وإذا كان الرجال هم الذين يحدثون التغيير في الحقائق الاجتماعية فإن تلك الحقائق تصبح بالضرورة عملاً تاريخياً من صنع الرجال .

وهكذا فإن الواقع الاجتماعي القهري هو نتيجة حتمية للتناقض القائم بين القاهرين والمقهورين ، وإذا كانت مسئولية المقهورين تحتم عليهم النضال من أجل استعادة حريتهم مع أولئك المتضامنين معهم فإن ذلك يفرض عليهم ادراك حقيقة الاضطهاد خلال عملهم النضالي ، فمن اصعب الامور التي تواجه العمل النضالي من أجل الحرية هو أن حقيقة القهر تفرض سطوتها على قلوب الرجال وتجعلهم مستغرقين فيها ، وكما يقولون « فإن القهر يدجن » وحتى لا يصبح الانسان فريسة للقهر فإن واجبه يحتم عليه أن يتحرر منه وينقلب عليه ولن يتم هذا الا بالنضال ووضوح الرؤية واردة التصميم التي تستهدف تغيير العالم ، فواقع القهر يبدو أكثر فاعلية ، بل ويتحقق بشكل موضوعي حين نضيف اليه اعترافاً بحقيقته وذلك ما يقابل العلاقة الجدلية بين الذاتي والموضوعي ، ففي مثل هذه العلاقة يصبح العمل النضالي من أجل الحرية ممكناً وبغيره لا يمكن حل التناقض القائم في علاقة القاهرين والمقهورين ، ولأجل أن يحقق المقهورون أهدافهم فإن عليهم أن يواجهوا الحقيقة بروح قادرة على النقد والتجسيد الموضوعي ، ذلك أن مجرد الاحساس بالواقع دون القدرة على نقده لا يؤدي الى التغيير المطلوب لسبب بسيط هو أن مثل

هذا الاحساس لا يكون صادقاً لانه في حقيقته مجرد رؤية ذاتية تضحي بالحقيقة الموضوعية وتخلق لها بديلاً كاذباً .

ويحدث تصور آخر كاذب عندما يهدد التغير في الحقيقة الموضوعية مصالح الفرد أو مصالح طبقته ، ففي مثل هذه الحال لا يتدخل الانسان بالنقد الواعي للواقع لأن الواقع نفسه غير حقيقي ونتيجة لذلك فلن يحدث تغيير لأن التغير يهدد مصالح الطبقة بأسرها وهكذا يجد الانسان نفسه يتصرف بعصبية لكون الحقيقة منحازة ضده ولا يجد هذا الانسان بداً من تمثيل دوره الى النهاية ، ينكر الحقيقة أو يفسرها بصورة مختلفة ومثل هذا الدفاع عن النفس يتفق تماماً مع أسلوب النظر الذاتي للمشكلات حيث تضع الحقيقة على الرغم من عدم انكارها وبذلك تتوقف عن أن تصبح واقعاً مجسداً ليحل محلها وجود وهمي أوجدته الطبقة للدفاع عن موقفها ، وهنا تكمن الأسباب أو العقبات التي صممت من أجل تعطيل الناس عن ممارسة دورهم النقدي للواقع ، فالقاهر يعلم تمام العلم أن مثل هذا النقد لن يكون في صالحه ، فمصالحه لا تتحقق الا عندما يستمر الناس في استغراقهم وعجزهم أمام حقيقة القهر . ويتضح من ذلك أن تبصير الناس بحقيقة دورهم يتطلب توضيحاً وتوعية بطبيعة ذلك الدور وهذا يفرض بالضرورة أن يعلم الناس عن العلاقة التي تربط بين مسئوليتهم وبين الأهداف التي تنتظرهم ، فبقدر ما يستطيع الناس كشف القناع عن طبيعة دورهم بقدر ما تكون كفاءتهم في عملية التغير ، فالناس في مثل هذه الحال على وعي بما يلحق نصرقاتهم من تطورات في المستقبل ، ولعله من نافلة القول أن تؤكد أنه لن يكون هنالك انجاز انساني ما لم تتضح الأهداف ، كما ولمن يكون هنالك عالم متحرر ما لم يواجه الانسان مسئولية التحدي ، وهكذا فان العمل الانساني لن يحقق الا اذا استطاع الانسان أن يرتفع بمستواه ليرى الحقيقة ويتفهمها من أجل أن يعمل على تغييرها ، وقد عرفنا في الفكر الجدلي طبيعة العلاقة الوثيقة بين العالم والفعل ، ونؤكد هنا أن الفعل لا يكون انسانياً الا حين يتم في ضوء بصيرة واعية وكما هو متضمن في شروط « لوكاس » فان الرؤية أو البصيرة الواعية ضرورية من أجل شرح دور الجماهير في الفعل . أما بالنسبة لنا فان الأمر لا يقتصر على عملية الشرح بل لا بد من الدخول في حوار مع

الجهاهير لتبصيرها بدورها ، وعلى أي حال فإن المسؤولية التي يلقيها « لوكاس » على عاتق الحزب الثوري من أجل شرحها للجهاهير تتطابق مع قولنا بضرورة تدخل الجهاهير في عملية النقد من خلال تجربتها العملية ، فتعليم المقهورين الذي هو في حقيقته تعليم الرجال المناضلين من أجل حريتهم يستمد حقيقته الجذرية مما ذكرناه آنفاً ، فالرجال الذين يدركون أو يبدأون في إدراك حقيقة قهرهم هم القادرون على القيام بهذا الدور التعليمي ، ذلك أن التعليم الذي يؤدي بالضرورة إلى تحرير الإنسان يمكنه أن يظل بعيداً عن واقع المقهورين يعاملهم كتعساء ثم يقدم لهم صورة نظرائهم في التعاسة من القاهرين . إذاً فلا بد للمقهورين من أن يمارسوا تجربتهم النضالية من أجل الخلاص ، وهكذا فإن تعليم المقهورين الذي يتجسد في صورة كرم انساني يقدم نفسه كتعليم صالح للرجال ، غير أن التعليم الذي ينطلق من دوافع أنانية تستهدف جعل القاهر متفضلاً انسانياً هو في حد ذاته ضرب من القهر أو هو وسيلة لتجريد الانسان من انسانيته وهذا مصداق ما ذكرناه سابقاً من أن تعليم المقهورين لا يمكن أن يضطلع بمسئولته القاهرون لأن مجرد قيامهم بدور المحرر يتناقض مع وظيفتهم كقاهرين .

ومن واجبتنا أن نتساءل كيف يستطيع المقهورون تحرير أنفسهم بواسطة التعليم قبل الثورة وهم لا يملكون القوة السياسية التي تؤهلهم لذلك ؟ انه سؤال على جانب كبير من الأهمية وسنركز الاجابة عليه بالتفصيل في الفصل الرابع من هذا الكتاب ، غير أنه يجدر بنا هنا أن نشير الى ضرورة التفريق بين التعليم النظامي الذي لا يمكن تغييره الا بواسطة القوة السياسية والبرامج التعليمية التي يقوم بها المقهورون خلال مرحلة تنظيم أنفسهم .

ان تعليم المقهورين كممارسة انسانية من أجل الحرية لا بد له أنه يمر بمرحلتين متمايزتين ، في المرحلة الأولى يستجلي المقهورون عالم القهر ومن خلال ممارستهم للنضال يلتزمون بتغيير هذا الواقع ، وفي المرحلة الثانية أي بعد أن تتضح حقيقة القهر لا يصبح التعليم من أجل المقهورين فقط بل يصبح من أجل الرجال كلهم لأجل تحقيق حريتهم الدائمة ، وفي كلتا المرحلتين فإن النضال وحده هو الذي

يتصدى لثقافة التسلط ، ففي المرحلة الاولى يبدأ المقهور رؤية جديدة لعالم القهر المفروض عليه وفي المرحلة الثانية ينزع عن نفسه الأوهام التي خلفتها في نفسه ظروف الوضع السابق ، وعلى ذلك فان تعليم المقهورين في المرحلة الأولى لا بد له أن يستثير الوعي بحقيقة وجود المقهور وحقيقة وجود القاهر أو بمعنى آخر حقيقة وجود رجال يمارسون القهر على الآخرين ورجال يعانون من ويلات هذا القهر . لا بد لهذا النوع من التعليم من ملاحظة سلوك المقهورين وأخلاقياتهم ونظرتهم للعالم، ذلك أن المقهورين يمارسون في كثير من الأحيان وجوداً متناقضاً أصْلته فيهم نزعة الاضطهاد والعنف ، وعلينا أن نعرف أن أي وضع يستغل فيه انسان انساناً آخر أو يعطل قدراته في تحقيق ذاته هو ضرب من القهر العنيف وان غلف في اطار من الكرم الزائف ، ذلك أن مثل هذا السلوك يحول دون ممارسة الكينونة الذاتية للانسان .

ويتضح من ذلك أن وجود علاقة تقوم على القهر يعني بالضرورة وجود علاقة يسودها العنف ولا نعرف في التاريخ كله أن العنف قد بدأ به المقهورون اذ كيف يتصور أن يكونوا البادئين وهم في حقيقتهم نتاج ممارسة العنف ضدهم بل كيف يمكن أن يبادر هؤلاء بالعنف والعنف هو في حد ذاته عيْل موجه ضدهم ، فمن المستحيل اذاً أن يكون هنالك متهور بدون أن يكون هنالك عنف قد مورس ضده ، فالعنف لا يبدأ به الا القاهرون الذين لا يستطيعون ادراك الحقيقة الانسانية في غير أنفسهم ، وينفس المنطق فليس المفزع هو الذي يسبب الفزع وانما الذي يسبب الفزع هم القساء الذين يبذلون كل قواهم من أجل تكثير طبقات المنبوذين .

ومن البدهي أن نقول ليس المسحوقون أصلاً للطغيان ، وليس المحتقرون أصلاً للكرامية وانما أصل ذلك هم الذين يمارسون هذه الأمور ضد هؤلاء ، ومن البدهي أيضاً أن نقول ليس الذين سلبوا حريتهم هم الذين يستلبون حرية الانسان وانما الذي يستلبها هم أولئك الذين جردوا هؤلاء من انسانيتهم ، وينفس المنطق نستطيع أن نقول ان الضعفاء لم يمارسوا القوة ضد الأقوياء وانما الذي مارس القوة ضد الضعفاء هم الأقوياء . وبرغم ذلك فان المقهورين في نظر القاهرين هم الذين

يعتملون بالكرامية والعنف والبربرية و « الوغدنة » والوحشية ولا سيما حين يتصدون لعنف القاهرين .

ولعله من الغريب أن المقهورين لا يحصلون على نفحة من عطف قاهريهم الا حين يواجهونهم بالعنف ، وهكذا فان انقلاب المقهورين الذي يعادل من حجمه في وجه اليهم من ظلم هو الذي يمنحهم شيئاً من الحب ذلك في الوقت الذي يقف فيه عنف القاهرين حجر عثرة في طريق ممارسة المقهورين لحقوقهم الانسانية ، وبرغم ذلك فان ممارسة القاهرين لعملية الاستلاب يجعلهم يقعون في شر أعمالهم حيث يصبحون فريسة لما قاموا به من أعمال قاهرة ذلك أن ممارسة القاهرين للقهر تجردهم من انسانياتهم وتسلمهم للاستلاب بالضرورة ، وعلى العكس من ذلك تماماً فان المقهورين حين يحاربون من أجل استعادة انسانياتهم فانهم يجدون القاهرين من قدرتهم على القهر وبذلك يعيدون لهم حريتهم التي فقدوها خلال ممارستهم السابقة ، وهكذا فان المقهورين وحدهم هم القادرون من خلال عملية تحرير أنفسهم ، تحقيق حرية الآخرين ، أما القاهرون ، فلمجرد كونهم قاهرين فانهم عاجزون عن تحرير أنفسهم أو تحرير غيرهم وذلك ما يحتم أن يشن المقهورون نضالهم من أجل ازالة التناقض الذي يعيشون فيه وسيتمخض عن هذا النضال الذي هو في طبيعته غير منسجم بالقهر أو الانقهار الانسان الجليد وهو باختصار الانسان القادر على ممارسة حريته ، واذا كانت الحرية هي الهدف الذي يسعى المقهورون الى تحقيقه ، فان ذلك لن يتأتى اذا تركز هدفهم في عكس الوضع الذي كانوا عليه ، بمعنى أن يصبحوا في وضع القاهرين بعد أن كانوا في وضع المقهورين ولعله من التبسيط أن نقول : ان علاقة المقهور تنتهي عندما ينتهي دور القاهرين كطبقة مهيمنة اذ لا بد أن يمارس من كانوا في القهر ضوابط تحول دون ممارسة القاهرين لدورهم السابق في مجتمع القهر ولا تعد مثل هذه الضوابط نوعاً من القهر ، فالقهر لا يتحقق الا حين تحول الاجراءات دون ممارسة الآخرين لانسانياتهم الكاملة ومن ثم فان الضوابط الجديدة لا تعني أن مقهوري أمس قد أصبحوا قاهري اليوم ، ذلك أن السلوك الذي يحول دون القاهرين واستعادة دورهم القديم لا يمكن أن يقارن بالسلوك القهري في صورته المعروفة ، فالسلوك القهري يعني بالضرورة أن أقلية ما

تحول دون ممارسة الأغلبية لوجودها الانساني ، وعلى أي حال فإنه في اللحظة التي يتحول فيها النظام الجديد الى بيروقراطية متحجرة يفقد التضال دوره الانساني ويتعذر حينئذ الحديث عن الحرية وذلك ما يؤكد موقفنا من أن الحل الأمثل لعلاقة القاهر والمقهور لا يتحقق بمجرد قلب الوضع - أي بأن يصيح المقهور قاهراً وحسب - ففي مثل هذا الوضع لا يشعر القاهر السابق أنه قد حرر وإنما يشعر بأنه قد أخذ يتجرع مرارة القهر الذي أذاقه بغيره فيما قبل ، فالقاهر السابق قد تعود على أن يأكل ويلبس ويتعلم ويسمع يتهوفن في الوقت الذي لا تجد فيه الملايين شيئاً مما يحبه وأي وضع بغير هذه الحقيقة في نظر هؤلاء هو اقتتات على حرياتهم الشخصية ذلك أن القاهر السابق لا يعرف من الانسانية الا نفسه أما الآخرون فانهم مجرد أشياء . وهكذا فإن الحق في نظر هؤلاء هو أن يمارسوا الحياة في سلام وطمأنينة أما غيرهم فلا يحق لهم الا مجرد العيش وقد يتكبرون عليهم هذا الحق في بعض الأحيان ، ولعلمهم لم يكونوا يعترفون للمقهورين بهذا الحق لولا أن ذلك ضروري بالنسبة لهم . وهذا النحو من فهم العالم هو الذي يجعل القاهرين يقاومون قيام أي نظام جديد .

ولعله بمجرد أن ينشأ موقف قائم على العنف فإنه يؤثر على سلوك الداخلين فيه بأجمعهم سواء كانوا قاهرين أو مقهورين ، فالعنف هو ظاهرة ظل يمارسها القاهرون جيلاً بعد جيل والأجيال التي تنأقلم في جوهه يصبح هذا السلوك جزءاً من مكوناتها وذلك ما يغذي في القاهرين حب التسلط والامتلاك للعالم والرجال ، فالقاهرون لا يستطيعون تبين حقيقة أنفسهم الا حين يقومون بدورهم كقاهرين .

يقول « فروم » انه بدون هذه النزعة الامتلاكية فإن القاهر يفقد اتصاله بالعالم ، ذلك أنه بطبعه يحول كل شيء حوله الى وجود خاضع لسلطته بصرف النظر عن كون هذا الوجود أرضاً أم زمناً أم رجالاً .

وهكذا في غمرة رغبتهم الجائعة في الامتلاك فإن القاهرين يولدون من داخل أنفسهم قناعة بأن في مقدورهم تحويل كل كائن في هذا العالم الى شيء يدخل في

أطار قدرتهم الشرائية ، فالنقود عند هؤلاء هي عماد كل شيء ، ولا هدف للإنسان من الحياة سوى تحقيق الربح ، لذلك فأنت تجد القاهرين في بحث دائم عن تحقيق المزيد من الربح . انهم يطلبون المزيد دائماً حتى وإن تم ذلك على حساب المقهورين الذين قد يأخذون القليل أولاً يأخذونه على الإطلاق ، وهكذا تبدو حقيقة الوجود عند هؤلاء متركزة في الامتلاك من جهة وفي أن يكونوا ضمن الطبقة المالكة من جهة أخرى ، وعلى الرغم من أنهم لا يرون العالم إلا من زاوية الامتلاك فإن الامتلاك لا يعتبر في نظرهم حقاً مشاعاً لكل الناس وذلك ما يجعل الكرم الصادر منهم نوعاً من الرياء ، فالإنسانية عند هؤلاء حق يمتلكه الإنسان بالوراثة وفي ضوء هذه النظرة فإن الاعتراف بالحقوق الإنسانية للآخرين في نظرهم هو قلب للأوضاع ، ولا يرى هؤلاء في احتكارهم قدرة الامتلاك شيئاً ينال من إنسانية الآخرين ، فأنت تجدهم باحثين عن المزيد تحركهم دوافعهم الأنانية ، على الرغم من اختناقهم بما يمتلكون ، والغريب أنهم يعتبرون كل ما آل اليهم بطريق القهر حقاً قد كسبوه بمجهودهم بل ويعتبرون أن هذا الحق قد تحقق لهم بفضل شجاعتهم من ارتياد المغامرة وهم ينكرون على غيرهم مثل هذا الحق لأن الغير في نظرهم غير أكفاء وكسالى ولا يحمدون النعمة التي يتفضلون بها عليهم ، فالغير في نظر القاهرين ناكرون للجميل وحاقدون وتنبغي مراقبتهم باستمرار حتى لا يحصلوا على شيء من الحرية يقبلون بها الأوضاع وتتجسد بها شخصيتهم المعنوية . ويتبين من كل ذلك أن نزعة القاهرين في امتلاك كل شيء حتى الإنسان هي ضرب من السادية وكما قال « فروم » ، في قلب الإنسان « إن المتعة في تحقيق السيطرة على إنسان آخر هي جوهر النزعة السادية وباستطاعتنا أن نقول أن السادية هي تجريد الإنسان من إنسانيته وتحويله إلى مجرد شيء ذلك أن السيطرة الكاملة على الإنسان تجرده من واحدة من أعز ممتلكاته ألا وهي الحرية »

وهكذا فإن الحب السادي حب مشوه لأنه في الحقيقة حب للموت وليس حباً للحياة ويتضح من ذلك أن من أهم مقومات الشخصية القاهرة نزعتها نحو السادية فالشخصية القاهرة تنجح بالضرورة إلى تدمير الطاقة الإبداعية التي تكمن في الحياة ، وبذلك فهي تسهم في تدمير الحياة ، وفوق ذلك كله فإن القاهرين يستخدمون

العلم والتكنولوجيا من أجل تحقيق أغراضهم التي تتركز في الأبقاء على نظامهم القهري القائم على الاستغلال والبطش ، أما المقهورون في ظل هذا النظام فيعيشون كمجرد أشياء يتوجب عليها أن تنفذ ما يرسمه لها القاهرون .

ثمة أمر على جانب كبير من الأهمية للناس من معرفة بعض القاهرين في هجر طبقتهم القهرية والانحياز الى طبقة المقهورين . حيث يشتقون من النقيض الى النقيض ، فأمثال هؤلاء يلعبون دوراً خطيراً في العالم ، ولقد ظلوا كذلك على مر التاريخ ، ولا يفوتنا أن هؤلاء عندما يترشحون من لعب أدوارهم كمستغلين أو كمراقبين غير مكرثين ويتم انتقالهم الى الطرف الآخر فانهم كثيراً ما يحملون أدواء طبقتهم الأولى التي تمثل في الكراهية والتحيز وعدم الثقة في قدرات الآخرين الى المجتمع الجديد ، وكثيراً ما يتميز هؤلاء في وضعهم الجديد بنوع من الكرم يشبه ذلك الكرم الزائف الذي مارسوه في مجتمع القهر ، وقد أوضحنا فيما قبل أن هذا النوع من الكرم هو في حقيقته انعكاس لوضع غير عادل ، ولا ننكر أن هؤلاء المعتنقين الجدد لقضايا المقهورين يريدون تصحيح ذلك الوضع غير العادل ولكنهم بسبب خلفيتهم الثقافية فانهم يريدون احتكار هذا الدور لأنفسهم . انهم يتحدثون عن الناس ولكنهم لا يثقون بهم ، والثقة بالناس ، فيما نعلم هي أساس التغيير الثوري ، فلا تتجلى النزعة الانسانية في أبهى صورها الا عند أولئك الذين يثقون بالناس ، ذلك أن الثقة بالناس هي اجدى من الاف الاعمال التي يقوم بها الثوريون من أجلهم دون أن يثقوا بهم .

واستناداً على ما ذكرناه فيتحتم على كل من ينصدى لقضايا الناس أن يراجع نفسه مرات ومرات ولا يتركها للأهواء والعواطف ، ذلك أن الذي يعتبر نفسه مالكا لحق الحكمة الثورية هو في الحقيقة ممارس لنفس السلوك القديم ، وكذلك فإن من يتصدى لامر تحرير الجماهير ولا يستطيع أن يتفاعل معهم متهماً إياهم بالجهل هو في الحقيقة مخادع لنفسه فاذا ظل المنحول من طبقة القاهرين الى طبقة المقهورين متوجساً من كل خطوة يخطوها المقهورون أو اقترح يقدمونه فهو في الحقيقة مخلص لسلوك طبقة القديمة أكثر من إخلاصه للطبقة المقهورة ذلك أن التحول الى الجماهير يقتضي

مخاضاً جديداً والذين يولدون في هذا المخاض لا بد أن يسلكوا سلوكاً مغايراً لأنه من غير المعقول أن يظلوا محتفظين بقيمتهم القديمة ، وهكذا فإن السبيل الوحيد لفهم خصائص حياة المقيمين وسلوكهم هو مزاملتهم والاندماج معهم ولا يعني ذلك أن المقيمين يخلون من مثل هذا التناقض فهم في كثير من الأحيان يمارسون نوعاً من الازدواجية وذلك حين يحسون القهر ثم يبررونه بالصورة التي جسدها في داخل أنفسهم لحقيقة قهرهم . انهم يحكمون على أنفسهم حكماً قاسياً حتى تتجلى لهم حقيقة القهر ظاهرة ، ففي هذه المرحلة يبدأون في تلك الشجاعة التي تنفي عنهم الاتكالية وتجعلهم يعتمدون على أنفسهم، وبدون هذا الاحساس فيظلون معتمدين على رؤسائهم قائلين لهم ماذا نفعل ؟ اننا مجرد فلاحين .

وعندما نحاول تحليل تلك القدرية التي يتميز بها المقيرون فس نجد أن لها جذوراً اجتماعية وتاريخية فهي غالباً ما تقرر عندهم بالخط أو المصير الذي هو من صنع الله ولا يد للإنسان فيه فمن خلال ممارسة المقيرين للسحر والأساطير يصل الفلاحون إلى قناعة مؤداها أن كل ما يلحق بهم من عناء واستبداد هو من مشيئة الله وكأن الله هو سبب هذه القوضى المنظمة ، فالمقيرون بانغماسهم في حقائق الحياة وامتناعهم لحقيقة القهر المستبطنة داخلهم لا يتأتى لهم ادراك حقائق الوضع المزرى الذي يعيشون فيه ، فبدلاً من أن يتوجهوا بالعنف نحو الواقع الذي يعيشون فيه ، تجددهم يحولون هذا العنف إلى زملائهم من أجل أتفه الاسباب .

يقول « فرانز فانون » في كتابه « معذبوا الارض » « ان المستعمر ينفس عن الظلم المتراكم في عظامه أول مرة في ابناء طبيئته ، ففي هذه المرحلة يبدأ الزوج في ضرب بعضهم بعضاً ، وفي هذه المرحلة لا يعرف البوليس أو القضاة في شمال أفريقيا الوجهة التي يتجهون إليها ، ففي الوقت الذي يضرب فيه المقيم أو رجل البوليس المواطن حتى يجعله يجثو على قدميه فإن هذا المواطن تجده لا يستل سكينه أو يثار لنفسه الا من أول بادرة تبدر من أحد مواطنيه ولعله بانتقامه من مواطنه يحتفظ لنفسه بآخر الخيوط التي تتعلق بها شخصيته »

ومن الجائز أن المقيرين يتعرضون لزملائهم المواطنين لأنهم يعرفون أنهم

يستبطنون في دخیلات أنفسهم شخصیات قاهرهم ، فكأنهم بذلك يقومون بطريقة غير مباشرة بمهاجمة القاهرين ، وإذا نظرنا الى الأمر من جانب آخر فسنجد أن المقهور في فترة ما خلال حياته يحس برغبة جارفة في تمثل حياة قاهره وبذلك يشعر برغبة في أن يعيش على طريقة القاهرين وتصبح أساليبهم مطمحا من المطامح التي يرنو اليها ، وفي هذه المرحلة يبذل المقهور كل ما في وسعه من أجل أن يعيش بأسلوب قاهره فتجده ينجح الى تقليده والسير على نهجه، وتبدو هذه الظاهرة بصورة خاصة في الطبقة الوسطى من طبقات المقهورين حيث يكثر التطلع الى المساواة مع أفراد الطبقة العالية .

يشير « البرت ميمي » في تحليله الرائع للعقلية المستعمرة في كتابه « المستعمرون والمستعمرون . . الى مدى الامتعاض الممزوج بالانجذاب العاطفي نحو المستعمرين يقول :

« كيف يمكن للمستعمر أن يعتني بعالمه اذا كان من وقت لآخر يستخدم بندقيته ضد جمع من المستعمرين وكيف للمستعمر أن يتجاهل هذا الواقع ليبالغ في مطالبه . كيف يجمع المستعمر بين كراهيته للمستعمر واعجابه العاطفي به - لقد شعرت نفسي بهذا النوع من الاعجاب - »

كذلك فان من خصائص شخصية المقهور تحقير الشعور الذاتي . ولقد استمد المقهورون هذه الحقيقة من استبطانهم لاراء القاهرين المتأصلة في نفوسهم فكثيراً ما يسمعون عن أنفسهم أنهم لا يصلحون لشيء ولا يعلمون شيئاً ، وليس لديهم الاستعداد لتعلم أي شيء وانهم كسالى ومرضى وغير منتجين ولكثرة ما ترداد هذه الأقوال في مسامعهم يقتنعون بها ويفقدون - بالتالي - الثقة في أنفسهم والأغرب انهم يزدادون ثقة بقاهرهم الذين يمثلون في نظرهم المعرفة والفطرة على تسير الأمور ، فالمعرفة عند هؤلاء تستقي من المعلم ولا يثقون في أي معرفة قد خبروها من هذا العالم الذي يعيشون فيه أو من علاقاتهم مع الآخرين ، فهؤلاء الرجال لا يتصورون أنهم يعرفون شيئاً ، ولعل ذلك تصرف طبيعي من رجال يمارسون الازدواج .

وبناء على ذلك فليس من النادر أن تجد الفلاحين يناقشون أمراً ما مع معلمهم في منتهى الحيوية ثم تجدهم فجأة يقفون ليقولوا معذرة : يجب علينا أن نصمت لتكلم أنت ، فأنت الذي تعلم أما نحن فلا نعرف شيئاً ، فهؤلاء الفلاحون يصرون على ألا فرق بينهم وبين البهائم وإذا اعترفوا بوجود فرق فإنه لصالح البهائم نكونها تمتلك قدراً من الحرية ، غير أن هذا النوع من تحقير الذات يأخذ في التلاشي عند أول مرحلة من مراحل إزالة القهر ، فلقد سمعت فلاحاً يقول في اجتماع الوحدة الانتاجية .

« لقد تعودوا أن يقولوا اننا غير منتجين لأننا كسالى ، وتلك أكاذيب ، أما الآن وقد احترمنا كرجال فسيعلم الجميع بأننا لم نكن سكارى ولا كسالى بل كنا مستغلين »

وهكذا فإنه ما ظلت الازدواجية قائمة فإن المقيهورين لن يكونوا في موقف يمكنهم من المقاومة لأنهم في مثل هذا الموقف يفتقدون الثقة اللازمة في أنفسهم ويعوضون عنها باليمان جازم بقوة القاهرين .

لقد حدثني واحد من أصدقائي ممن تخصصوا في علم الاجتماع أن جماعة من الفلاحين المسلحين في أحد أرياف أمريكا اللاتينية قد قرروا لأسباب تكتيكية أن يحتفظوا بصاحب الأرض رهينة عندهم ، ولكن أحداً منهم لم تواته الشجاعة ليخفروه ، فقد كان مجرد وجوده بينهم يخيفاً بالنسبة لهم جميعاً . ولعل مجرد الاحساس بمواجهة الرئيس قد أثار عندهم احساساً بالذنب ولا تفسير لذلك سوى أنهم كانوا جميعاً يستبطنون صورة الرئيس القاهر في دخیلات أنفسهم .

وهنا يبدو ضرورياً أن يرى المقيهورون صوراً من تصدع شخصيات القاهرين حتى يقتنعوا بإمكان ذلك في حالتهم ، وما لم يتحقق ذلك فإنهم سيظلون خائفين ومهزومين (انظر كتاب ديزلي: ثورة في الثورة) . وما ظل المقيهورون على غير وعي بأسباب قهرهم فيظلون على قدرتهم في قبول واقعهم ، بل لعلهم قد يقفون موقفاً سلبياً حين يواجهون بضرورة النضال من أجل تحقيق حريتهم أو تأكيد

ذواتهم ، حقاً فانهم سيارسون شيئاً فشيئاً نوعاً من العصيان غير أنه في خلال النضال من أجل الحرية يجب الا يصرف الانسان نظره عن مثل ذلك السلوك السلبى ، والا يتعجل ساعة اليقظة ، فالمقهورون في تصورهم الحقيقي للعالم يشعرون بأنهم مجرد اشياء يمتلكها القاهرون ، أما بالنسبة للقاهرين فان وجودهم يرتبط دائماً بغريزة الامتلاك ، حتى لو كان هذا الامتلاك على حساب أولئك المعدمين ، وبالنسبة للمقهورين فانهم لا يطمحون في هذه المرحلة بأن يكونوا مثل القاهرين بل جل ما يطمحون اليه هو أن يكونوا تحت رحمتهم يعتمدون عليهم اعتماداً كلياً .

وهكذا يتضح لنا أن اعتماد الفلاح على غيره مبني على عدم وعيه فهو يمارس معاناة شديدة قبل أن يكتشف اعتماده على غيره ، وكرد فعل لذلك فهو ينفس عن نفسه في منزله بالصباح في أطفاله وضربهم وينفس عن يأسه بالشكوى من زوجته ويبدو كل شيء في هذه المرحلة بالنسبة اليه مفرعاً وهو لا يستطيع أن ينفس عن نفسه امام قاهره لأنه يراه كائناً متفوقاً ، فاذا لم يجد متنفساً لجأ الى الخمر مداراة لأحزانه . ويقود هذا الضرب من الاعتماد العاطفي الكلي الذي يمارسه المقهورون الى ما يسميه « فروم » السلوك الانتحاري وهو سلوك يؤدى الى تدمير حياة المقهور أو حياة زملائه في القهر .

وبمجرد أن يبدأ المقهور الاحساس بذاته يبدأ في نزع صورة القاهر من داخله ليمارس النضال المنظم من أجل تحقيق حريته ، ولكي يحقق هذا النضال غايته ، فينبغي الا ينتهي عند حدود العقل وحده اذ لا بد أن يصاحب الاكتشاف العقلي عمل فعال يتجاوز حدود الحماس .

وهنا لا بد أن تنظم مراحل العمل النضالي من أجل الحرية نزعاً من الحوار الانتقادي بين فصائل المقهورين ويختلف نوع الحوار بحسب المرحلة التاريخية وحسب مستوى المقهورين في رؤية الواقع ، أما أن تحمل الذاتية والشعارات والبيانات مكان الحوار فان ذلك يعني محاولة تحقيق الحرية بوسائل التدجين وذلك ما لا سبيل اليه لأن أي محاولة للتحرير لا يشارك فيها المقهورون مشاركة فعالة تعني

أنهم ما يزالون يعاملون كمجرد أشياء يستهدف المخلصون اخراجها من مبنى محترق ، وليس من نتيجة هذه العملية سوى قيادة المقيهورين الى حفرة الحزبية الجماعية التي تحولهم الى جماعات مستغلة .

واستناداً على ذلك فيجب أن يرى المقيهورون أنفسهم في جميع مراحل التضال كرجال مشغولين في عمل تاريخي يحقق لهم انسانيته . وتصبح الرؤية والعمل الزاماً عندما لا يحاول أحد عن طريق الخطأ أن يوحد بين مضمون الانسانية وصورها التاريخية ، فالقول بضرورة أن يكون المقيهور رؤية حقيقية عن حقيقة وضعه لا يعني دعوة للثورة عن طريق المقاعد الوثيرة ، وإنما يعني أن العمل لا يمكن أن يحقق مغزاه الا اذا انطلق من رؤية واضحة ، وبدون ذلك يصبح مجرد ضرب من الحماس . ومن أجل أن ينجز هذا العمل العظيم فلا بد من الثقة في قدرة المقيهورين على استخدام عقولهم ، ومن يعجز عن رؤية هذه الحقيقة سيعجز بالضرورة عن اجراء الحوار والاتصال وسيقع بلا شك في دوامة اطلاق الشعارات والبيانات والتعليمات ، وهكذا فإن المعتنقين السطحيين لقضايا المقيهورين يصابون بالفشل عندما يقعون في مثل هذه المزالق التي لا سبب لها سوى فقدان الثقة والحوار مع الجماهير ، فالعمل السياسي الى جانب المقيهورين لا بد أن يكتسب صفته التعليمية ولا بد - كذلك - أن يتصف بالمشاركة القائمة على الثقة ، وفي نفس الوقت يجب على الذين يناضلون من أجل الحرية الا يأهبوا للاعتقاد العاطفي من جانب المقيهورين ، فقد تعود المقيهورون على هذا النوع من الانتكالية من خلال ظروف القهر التي عايشوها ولكن العمل من أجل الحرية لا يعترف بهذا اللون من الخنوع بل يعتبره نقطة ضعف لا بد من ازالتها عن طريق العمل والوعي ليصبح كل فرد من المقيهورين مستغلاً في ارادته ، وعلينا أن نعترف بأن هذه هي مهمة المقيهورين في المقام الأول لانه ليست هنالك قيادة مهما بلغ حسن نيتها تستطيع أن تعطي هذا الاستقلال كمنحة من جانبها للمقيهورين ، فتحريرو المقيهورين هو تحرير للرجال وليس تحريراً للأشياء . وينبغي على ذلك أن الذي لا يستطيع أن يحرر نفسه بنفسه فلن يستطيع أحد غيره أن يحرره ، فالتحرير كظاهرة انسانية لا يمكن أن يتحقق بأشباه الرجال ولذلك فإن اي محاولة لمعاملة الرجال كأشباه رجال هي تقليل في درجة انسانيته بل

هي مزيد من التعاسة لهم لان الذي يقتل من قيمة الرجال في عملية التحرير انما يستعيد نفس ظروف القهر القديمة . لذلك فمن الخطأ أن تعتمد القيادة الثورية في عملية التحرير على أسلوب الشعارات، ومن الخطأ أن تحشو عقول المتهورين باعتقادات في الحرية مؤملة ان تكسب بذلك ثقتهم ، فالطريقة الصحيحة للتعامل مع المتهورين هي طريقة الحوار، ذلك أن قناعة المتهورين بالنضال من أجل اكتساب حريتهم ليست منحة تسبغها عليهم القيادة الثورية بل هي نتيجة حوار داخلي ولد مثل هذه القناعة لديهم . ومن واجب القيادة الثورية أن تعلم أن مثل هذه القناعة لا تغلف كي تباع وانما يتوصل اليها المتهورون عن طريق الوعي والعمل وقد توصلت القيادة نفسها الى مثل هذه القناعة عندما أدركت واقعها من خلال موقف تاريخي وجدت نفسها في داخله وامتلكت القدرة على نقده وتمنت أن تصححه . كذلك فمن حق المتهورين أن يصلوا الى نفس القناعة من خلال ممارسة دورهم كرجال وليس من خلال واقعهم كأشياء ، اذ لا بد هؤلاء من أن يمتلكوا القدرة على نقد الواقع الذي يعيشون فيه ، فالشعارات وحدها لا تكفي لتحقيق هذه الغاية . ولما كانت القناعة ضرورية من أجل القيادة الثورية فانها أيضاً ضرورية من أجل المتهورين لان غيرهم لا يستطيعون القيام بالدور المناط بهم . وعند هذه المرحلة يتضح أن كل ما ذهبت اليه لم يكن سوى دفاع عن المنحى التعليمي للثورة ذلك أن جميع الثوريين الذي آمنوا بحق المتهورين في التحرير آمنوا في نفس الوقت بحقهم التعليمي في النضال ، ولا ينفي ذلك أن بعض هؤلاء قد مارسوا مع المتهورين نفس الأسلوب التعليمي الذي مارسه القاهرون وذلك بانكارهم التجربة التعليمية من خلال العمل واعتمادهم على ثورة الشعارات ولكن من المحتتم أن يعلم المتهورون أنه منذ اللحظة التي قبلوا فيها تحمل مسئولية النضال من أجل استعادة انسانياتهم قد وطنوا أنفسهم على أن يحملوا المسئولية كاملة على عواتقهم ، ذلك أن نضالهم لا ينتهي فقط عند تحرير أنفسهم من غائلة الجوع ، وكما يقول « فروم » في « قلب الانسان »

« ان الحرية هي من أجل الخلق والبناء ومن أجل الحركة والمغامرة وهذا النوع من الحرية يتطلب أن يكون الانسان نشطاً ومسئولاً والا يكون مجرد عبد أو ثور في محراث أحسن اطعامه ولكي تتحقق متطلبات الحياة فلا يكفي أن يكون الانسان عبداً

ذلك أن الانسان الذي يمارس حياته بارادة مسلوبة وكأنه آلة يفضل الموت على الحياة »

واستناداً على ما ذكرناه فإن المقهور الذي أحيط بكل عوامل الموت أثناء القهر لا بد ان يتجدد امله بالانسانية والحياة من خلال النضال ولا يتم ذلك بأن يوفر لنفسه مزيداً من الطعام رغم أهمية الطعام بالنسبة له - وإنما بأن يتجاوز تلك الظروف التي جردته من انسانيته وحولته الى مجرد شيء ، وليس في مقدوره أن يفعل ذلك الا بأن يناضل كرجل من الرجال .

ويبدأ النضال عندما يعي الرجال أنهم قد خضعوا لعملية تحطيم انساني ولكن كما اسلفنا : فإن النضال لا يكون بالشعارات أو الانظمة أو الاستغلال فهذه كلها من أدوات السيطرة ولا يمكن أن تصبح بين عشية وضحاها من أدوات النضال واستعادة انسانية الانسان، ذلك أن الوسيلة الوحيدة الناجعة لتحقيق الحرية هي التعليم ذو الصبغة الانسانية الذي تقيم فيه القيادة الثورية نوعاً من الحوار الدائم مع المقهورين . فمن خلال هذا الحوار لا يمكن أن تكون طريقة التعليم وسيلة يسيطر بها الاساتذة - أي القيادة الثورية - على التلاميذ - أي المقهورين - لان هذه الطريقة تعبر عن ضمير المعلمين أنفسهم .

ونستخلص من ذلك أن على القيادة الثورية أن تمارس نوعاً من التعليم يقوم على المشاركة التامة بين القيادة والجاهير وأن تغذي هذه المشاركة بالتجربة العملية والا تكتفي بمجرد تعرية الواقع فهذه هي الوسيلة الوحيدة لنقد الواقع من أجل اعادة تشكيله وهي الوسيلة الوحيدة التي يستطيع بها المقهورون اعادة تشكيل واقعهم بطريقة فعالة .

الفصل الثاني

مفهوم التعليم البنكي ومفهوم التعليم الحوارى

يكشف التحليل الموضوعي لعلاقة المعلم والطالب القائمة داخل المدرسة وخارجها عن أسلوب التواصل بينهما وهو أسلوب يعتمد على وجود حاكٍ يقوم بدوره المعلم وتستمتع يقوم بدوره الطالب، وسواء كان الموضوع قيمياً عامة أو إبداعاً عقلية مستمدة من الواقع فإنه يظل فاقداً للحياة وتلك هي أزمة التعليم .

يتحدث المعلم عن الواقع وكأنه موات لا حياة فيه أو كأنه متوقف ومحصور وقابل للاستنتاج وبذلك يبدو الموضوع غريباً على خبرة التلاميذ وتنتهي مهمة المدرس في هذه العلاقة عند ملء عقول التلاميذ بمحتوى قصته وهو محتوى مبتسر لا يستثير اهتمام أولئك الذين أريد لهم أن يتعاملوا معه ، ذلك أن الكلمات قد أفرغت من محتواها وجوفت لتصبح في النهاية مثاراً للاغراب .

ان اهم ما يميز التعليم التقليدي هي لهجته المتعالية وعدم قدرته على احداث التغيير . $4 \times 4 = 16$ ، عاصمة كذا . . كذا ، اما الطلاب فينحصر دورهم في الحفظ والتذكر واعادة الجمل التي سمعوها دون ان يتعمقوا مضمونها ، وليس من هدف لهذا التعليم التقليدي سوى تعويد الطلاب أسلوب التذكر الميكانيكي لمحتوى الدرس وتحويلهم الى آنية فارغة يصب فيها المعلم كلماته الجوفاء . وما ظل المعلم قادراً على القيام بهذه المهمة كان ذلك دليلاً على كفاءته وما ظلت الأواني قادرة على الامتلاء كان ذلك دليلاً على امتياز الطلاب، وهكذا أصبح التعليم ضرباً من الابداع تحول الطلاب فيه الى بنوك يقوم الاساتذة فيها بدور المودعين ، فلم يعد الاستاذ وسيلة من وسائل المعرفة والاتصال بل أصبح مصدر بيانات ومودع معلومات ينتظره الطلاب في صبر ليستذكروا ما يقوله ثم يعيدوه ، ذلك هو المفهوم البنكي للتعليم الذي تحدد فيه دور الطالب كمستقبل للمعلومات يملاً بها رأسه ويخزنها دون وعي ،

ولا شك أن هناك من ينجح بهذه الوسيلة في أن يصبح جامعاً للمعلومات أو كتالوجاً لها ولكن تبقى الحقيقة العارية وهي أن الذي خزن بالفعل ليست هي المعلومات وإنما هو عقل الإنسان الذي حرم بهذا الأسلوب غير الموفق في التعليم من فرص الابداع والتطوير ، اذ كيف يمكن للإنسان أن يمارس وجوده الحق دون أن يتساءل ودون أن يعمل ؟

ليس ذلك بالطبع ممكناً ، لأن المعرفة الحققة إنما تنبثق من الابداع الذي هو وليد القلق المستمر ، وبالتالي فلا يستطيع الإنسان أن يجيب عن تساؤلاته إلا إذا اتصل بهذا العالم وعمل فيه مشاركاً مع غيره من الرجال . ويتضح من مفهوم التعليم البنكي أن التعليم مجرد منحة يتفضل بها أولئك الذين يعتبرون أنفسهم مالكيين للمعرفة على أولئك الذين يفترضون أنهم لا يعرفونها ، غير أن اصفاء الجهل على الآخرين هو في حقيقته من مخلفات فلسفة القهر التي تجرد التعليم والمعرفة كليهما من خاصيتيهما كصليتي بحث مستمر من أجل اكتساب الحرية ، وفي إطار التعليم البنكي يقدم المدرس نفسه للتلاميذ على أنه الصورة المضادة لهم وهو باصفائه صفة الجهل عليهم يبرز وجوده كأستاذ لهم ، وعند هذه المرحلة يتم تغريب التلاميذ واستعبادهم وبحسب المنظور الهيغلي للديالكتيك فإن اعتراف التلاميذ بجهلهم هو أيضاً تبرير لوجود الأستاذ بينهم ، وعلى غير ما يكون العبيد فإن هؤلاء التلاميذ لا يكتشفون مطلقاً أنهم يعلمون الأستاذ. وفي ضوء ما ذكرناه يتبين لنا أن التعليم الحق هو ذلك الذي يعتمد الى حل التناقض القائم بين الأستاذ وتلميذه ويعتمد الى إيجاد نوع من المصالحة يصبح الطرفان فيها أساتذة وطلاباً في نفس الوقت . ومثل هذا الحل غير موجود في المفهوم البنكي الذي هو في جوهره تأكيد لطبيعة التناقض القائم والتي تجسدها المفاهيم التالية والتي هي في حقيقتها انعكاس لمجتمع القهر .

- ١ - الأستاذ يعلم والطلبة يتلقون
- ٢ - الأستاذ يعرف كل شيء والطلاب لا يعرفون
- ٣ - الأستاذ يفكر والطلاب لا يفكر
- ٤ - الأستاذ يتكلم والطلاب يستمع

- ٥ - الأستاذ ينظم والطالب لا ينظم
- ٦ - الأستاذ يختار ويفرض اختياره والطالب يذعن
- ٧ - الأستاذ يتصرف والطالب يعيش في وهم التصرف من خلال عمل الأستاذ .
- ٨ - الأستاذ يختار البرنامج والمحتوى والطالب يتأقلم مع الاختيار
- ٩ - الأستاذ يربك المعرفة ويتدخل فيها ويحول دون الطلاب ودون ممارستهم حرياتهم .
- ١٠ - الأستاذ هو قوام العملية التعليمية والطالب نتيجتها

وفي ضوء ذلك فليس من المستغرب أن يعتبر المفهوم البنكي الرجال كائنات متأقلمة وسهلة القيادة ، والحقيقة هي أنه كلما تأكدت حقيقة أن الطلاب مجرد مخازن للمعلومات كلما قل وعيهم بالعالم المناط بهم تغييره ، فقبولهم لهذا الدور السلبي المفروض عليهم يعني بالضرورة تأقلمهم المستمر مع الواقع المفروض عليهم والمعرفة المبسرة التي أريد لها أن تملأ عقولهم، ومن هنا يتضح أن مهمة التعليم البنكي تتركز في تقليل القدرة الإبداعية عند الطلاب أو الغائتها تماماً من أجل خدمة أغراض القاهرين الذين لا يرغبون في أن يصبح العالم مكشوفاً هؤلاء أو أن يصبح موضوعاً للتغيير، فالقاهرون يتصرفون بغرائزهم ضد أي محاولة في التعليم تستهدف تنمية الملكة النقدية وترفض النظرة الجزئية لحقائق العالم . وتجدهم في ذلك لا يحفلون بالمواقف بل يحفلون بالإنسان الذي يريدون له أن يتأقلم مع ظروف القهر وبالتالي مع السيطرة والاستغلال ، لاجل ذلك يشجع القاهرون مفهوم التعليم البنكي ويفرضون سيطرة أبوية على النظام الاجتماعي الذي يتلقى فيه المقهور تعليمه ، فهم يعتبرون أمثال هؤلاء المقهورين حالات فردية أو رجالاً هامشين لا يحق لهم التمتع بمزايا الصلاح والنظام والعدل الاجتماعي. فهؤلاء الرجال في نظرهم هم الجزء المريض في جسم المجتمع صحيح البنيان ويحتم واجبهم أن يتحملوا مسؤولية عدم الكفاءة والكسل حتى يؤقلموا أنفسهم ويغيروا من عقلياتهم ليصبحوا جزءاً مندمجاً في جسم المجتمع الذي أخطأوه ، ولكن الحقيقة التي تؤكد نفسها هي أن المقهورين ليسوا رجالاً هامشين أو رجالاً يعيشون خارج حدود المجتمع الصحي ، فهم كانوا كذلك عندما مورس ضدهم الاستغلال في المجتمع الذي حولهم الى مجرد أشياء .

وهكذا فإن الحل لا يكمن في أن يدمج هؤلاء في تركيبة مجتمع القهر بل يكمن في تغيير هذه التركيبة ليمتلك هؤلاء الرجال أقدار أنفسهم ، ولا يخفى أن مثل هذا التغيير يدحض أهداف القاهرين ، ولذلك فأنت تجدهم يستमितون من أجل فرض نظام التعليم البنكي الذي يبقى الواقع كما هو عليه .

وهكذا فإن المنطلق البنكي في تعليم الكبار لا يطرح مطلقاً أمام الدارسين حقائق العالم من وجهة نظر نقدية بل يركز على أشياء من هذا القبيل .

هل أعطى « روجر » الحشيش للمعزة ؟

ويصر القاهرون على ضرورة تعليم مثل هذا السؤال او غيره نحو « روجر » أعطى الحشيش الأخضر للأرنب » .

ويبدو من ذلك أن المنطق البنكي يكرس استغلال الانسان وبالتالي يحول دون ممارسته لانسانيته الكاملة .

وهكذا فإن أولئك الذين يمارسون التعليم البنكي سواء عن قصد أو غير قصد يفشلون في رؤية التناقض الذي يودعونه عقول الطلاب ، غير أن هذه التناقضات عاجلاً أو آجلاً هي التي ستقود الطلاب للانقلاب ضد هذا الأسلوب الذي لا يستهدف سوى تدجينهم ، فهم في علاقتهم مع الواقع يدركون أن الواقع عملية حركية مستمرة تتخذ طريقها نحو التغيير المتصل وذلك ما يجعلهم يحسون بالتناقض مع ما تعلموه ، وعندئذ يدركون أن ما تعلموه لم يستهدف شيئاً سوى شغلهم عن النضال من أجل تحقيق حريتهم .

أما المعلم الانساني الثوري ، فعلى العكس من ذلك فإنه لا يصل بالمتعلمين الى هذا المستوى لأن أهدافه منذ البداية تتفق مع أهداف التلاميذ الذين يرغبون في شغل أنفسهم بالتفكير النقدي الذي يحقق لهم انسانيتهم ، فهذا المعلم يثق ثقة عظيمة بالرجال وقدراتهم في الابداع ، لذلك فلا تجده يقوم بدور المتسلط بل يقوم بدور المشارك مع تلاميذه ، وهذا اتجاه لا يعترف به المفهوم البنكي للتعليم ، وهكذا

فإن السبيل الوحيد من أجل حل التناقض في علاقة المدرس والتلميذ المتمثلة في كون المدرس مودعاً ومنشئاً ومدجناً هو القضاء على حقيقة القهر من أجل خدمة أهداف الحرية .

ويمكننا أن نقول أن نظام التعليم البنكي بما يشتمل عليه - ينطلق ضمناً - من افتراض بوحدة العالم والانسان ، فالانسان في نظر دعاة هذا النوع من التعليم يوجد داخل العالم وليس معه كما يوجد ضمن الآخرين وليس معهم وفي نظر هؤلاء فإن الانسان مجرد مشاهد غير قادر على ابداع دوره، وفي هذا السياق لا يكون الانسان ضميراً يحس بهذا العالم بل هو عقل فارغ مفتوح لتلقي ما يودع فيه . ويتبع ذلك منطقياً أن دور المعلم يكمن في صب المعرفة في داخل عقل التلميذ من أجل ملئه بمودعات يعتقد أنها تمثل المعرفة الحقيقية. وما ظل الرجال يتعاملون مع العالم بهذه الطريقة السلبية فإن هذا النوع من التعليم يزيد في سلبيتهم ويجعلهم أكثر تأقلاً مع الواقع الذي يعيشون فيه ، فالانسان المتعلم حسب هذا المفهوم هو الانسان المتأقلم وهو بذلك أكثر صلاحاً من غيره للملاءمة مجتمع القهر وإذا ما ترجنا هذا المفهوم ترجمة واقعية ادركنا أنه يتناسب جداً مع أهداف القاهرين الذين تتركز اهتماماتهم في ضرورة تأقلم الرجال مع العالم الذي صنعوه هم والذي لا يعرفون له بديلاً ، فيقدر ما تأقلم الأغلبية مع الأغراض التي حددتها لهم الأقلية المسيطرة بقدر ما تكون الأقلية قادرة على الاستمرار في لعب دورها المرسوم ، وهكذا فإن النظرية وتطبيقاتها في مفهوم التعليم البنكي تخدم هذه الغاية بكفاءة تامة، وكذلك فإن الدروس القولية والقراءة المطلوبة ومهرق تحصيل المعرفة والمسافة بين التعليم والمتعلم وأسس ترقية الطلاب وكل التفصيلات الجاهزة تخدم هدفاً واحداً هو تحييد قدرة الطلاب على التفكير .

أما موظف البنك التعليمي فهو بالضرورة لا يعي أن هذا اللون المتختم من التعليم غير مضمون النتائج لأن الانسان بطبعه ميال للعيش في تماسك مع الآخرين ، فالمدرس في الظروف الطبيعية لا يستطيع أن يفكر للتلميذ ولا يستطيع أن يفرض تفكيره عليه ، ذلك أن التفكير الذي يتعلق بالحياة لا يمكن أن يتم في برج

عاجي أو في عزلة وانما يتم دائماً بين الجاهل حيث الاتصال فيما بينها وإذا كنا نؤمن بأن التفكير الحق هو وحده الذي يقترن بالعمل المتصل بهذا العالم فإن إخضاع التلاميذ لأساتذتهم يصبح من المحال ، ولأن التعليم البنكي يبدأ بفهم خاطيء حيث يستهدف تحويل الرجال الى أشياء فانه يعجز عن تحقيق ما يسميه « فروم » في قلب الانسان « الرغبة في الحياة » وبدلاً من ذلك فانه يحقق ما يسمى بالرغبة في الموت .

يقول « فروم » .

« في حين أن الحياة تتميز بنموها الوظيفي فإن الانسان الفاقد لحيويته ينجذب نحو كل الأشياء غير النامية أو الأشياء ذات الطبيعة الميكانيكية ، فالانسان النمطي يرغب في تحويل كل ظاهرة عضوية الى ظاهرة غير عضوية لتصبح الحياة في شكلها الميكانيكي وكأن الأحياء مجرد أشياء فهو يريد للانسان أن يتميز بالذاكرة لا بالخبرة وبالاتلاك لا الوجود وهو لا يشعر بما سواء سواء كان زهرة أو انساناً الا اذا امتلكه ، وحينئذ يصبح كل تهديد يلحقه فيما امتلكه تهديداً موجهاً الى شخصه فهو ان لم يمتلك فقد اتصّاله بالعالم الذي يعيش فيه وأمثلة هذا الانسان النمطي يعشق التحكم في غيره ولا يعلم أن بذلك يقتل نفسه في عملية التسلط هذه »

ويبدو من ذلك ان القهر والسيطرة يؤديان بالضرورة الى القتل ، ذلك أنهما يستمدان وجودهما من حب الموت وليس حب الحياة ، وهكذا فإن المفهوم البنكي للتعليم والذي يخدم ظروف القهر هو مميت بالضرورة لأن اعتماده على (الآلية) والجمود والتحييد يحول الطلاب الى أوعية للاستقبال وبذلك تتم السيطرة على التفكير والرغبة وفي العمل ويتم في نفس الوقت أقلمة الانسان الى ظروف القهر وتعطيل طاقاته المبدعة . وعندما تعاق قدرة الانسان على الحركة ويجد نفسه غير قادر على ممارسة ملكاته يبدأ احساسه بالشقاء وهذا الاحساس هو وليد الخلل الذي حدث في طبيعة التوازن الانساني .

يقول فروم :

« غير أن احساس الانسان بعدم قدرته على الحركة وان كان يسبب له ضيقاً فإنه في ذات الوقت يدفعه الى الرفض ومحاولة الانقلاب »

ولكن هل يستطيع ذلك وكيف ؟

يبدأ المرء بتمييز نفسه عن أولئك الذين يمتلكون القوة، ويمجرد أن يحس المقهور نفسه من خلال الشخصيات الجذابة للقادة يبدأ في الشعور بأنه يمتلك نفس الحيوية والفعالية ، وهكذا فإن الانقلاب الذي يعبر عنه المقهورون في العملية التاريخية إنما هو في حقيقة أمره تعبير عن رغبتهم في العمل الايجابي أما الصفوة المسيطرة فإنها تعتبر العلاج مزيماً من السيطرة باسم الحرية والنظام والسلام الاجتماعي فهم يدينون من وجهة نظرهم كل ما يتجه اليه المقهورون من استخدام للعنف واضرابات عمالية ويذهبون الى أبعد من ذلك حين يدعون الدولة الى استعمال العنف من أجل قمع الاضرابات .

ويؤكد ما قدمناه أن التعليم الاستغلالي لا يستهدف شيئاً سوى تطويع الطلاب بدافع فكري مرسوم كي يتأقلموا مع عالم القهر ، ولا نسوق هذا الاتهام بسذاجة من أجل أن نفلح طلفات الصفوة عن ممارستها ، وإنما نسوقه كي نلفت انتباه الاشخاص ذوي النزعات الانسانية الحقة الى استحالة استخدامهم للتعليم البنكي في نضالهم من أجل الحرية، لأن التعليم البنكي يناقض في مفهومه مثل ذلك الهدف كما نلفت الانتباه الى خطأ أن يرث المجتمع الثوري هذا المفهوم من المجتمع القهري. وأما المجتمع الثوري الذي يطبق نظام التعليم البنكي فاما أن يكون مضللاً واما أن يكون قد فقد الثقة بالرجال وفي كلا الحالين فهو مهدد بالانقلاب عليه .

ومن المؤسف حقاً ان نجد أولئك الذين يناضلون من أجل الحرية محاطين دائماً بجو التعليم البنكي ولا يستطيعون أن يميزوا خطورته في استلاب انسانية الانسان بل من الغريب أن نجدهم يستخدمون نفس الوسيلة التي يستهدفون محاربتها . حقاً فإن هنالك بعض الثوريين ينظرون الى من يعارض هذا النوع من التعليم على أنهم سذج أو حالمون أو رجعيون، ولكن الحقيقة هي أنهم لا يستطيعون تعليم الرجال

بتغريبهم فالحرية ليست شيئاً إضافياً يودع في عقول الرجال بل هي ممارسة أو استجابة واعية نحو العالم من أجل تغييره ، لذلك فإن أولئك الذين يستهدفون تحرير الانسان حقاً لا يمكنهم أن يقبلوا المنهج الالي الذي يحول الانسان الى اداة يتوجب ملؤه، كما لا يمكنهم أن يقبلوا المفهوم البنكي باسم الحرية . وهكذا فإن المؤمنين حقاً بتحرير الانسان يرفضون دائماً المفهوم البنكي ويستعيضون عنه بمفهوم آخر يعترف باحساس الانسان تجاه العالم الذي يعيش فيه ، وأمام هؤلاء ان يقلعوا عن جعل التعليم وسيلة للإيداع وان يجعلوه بدلاً من ذلك وسيلة لتسليط الضوء على مشاكل الانسان مع هذا العالم الذي يعيشون فيه ، ذلك أن التعليم الذي يتناول قضايا الانسان الفعلية يرفض أسلوب البيانات ويستعيض عنها بأسلوب الحوار .

ومن هنا نعلم أن التعليم الذي يستهدف الحرية يركز على الادراك اكثر مما يركز على نقل المعلومات، فمادة التعليم في هذه الحال تقف في وضع وسطي بين المعلم والتلميذ وبذلك تحل مشكلة التناقض بين التلميذ والمعلم ، فالعلاقة الحوارية التي تنشأ بينهما تساعد على الوعي بمادة التعليم وبذلك يصبح التعليم ممكناً.

وفي ضوء ذلك يتضح لنا أن التعليم الذي يعالج المشكلات هو وحده القادر على حل التناقضات التي تحول دون تحقيق الحرية ، ففي هذا النوع من التعليم ينتهي وجود مدرس الطالب وطالب المدرس ويحل مكان هذه العلاقة علاقة اخرى جديدة هي علاقة المدرس والطالب والطالب والمدرس معاً في حل المشكلات . ففي هذه العلاقة لن يصبح المدرس هو وحده الذي يدرس لأن المدرس في العلاقة الجديدة يتعلم أيضاً من خلال حوار مع الطلبة كما أن الطلبة لا يدرسون فقط بل انهم يُعلِّمون أيضاً ويبدو من ذلك أن كلا الطلبة والمدرسين يشتركون في عملية نامية واحدة ، وفي ظل هذا الأسلوب فان السلطة تكون للحرية وليس لأية جهة اخرى . وفي ظلّه أيضاً لا يوجد واحد يدرس وآخر يتعلم وانما الجميع يتبادلون المعرفة حيث يتوسطهم العالم في هذه الممارسة ، وهكذا يختلف مفهوم هذا الاسلوب عن مفهوم التعليم البنكي الذي تظل المعرفة فيه وفقاً على الأستاذ وحده .

ويتبين لنا من خلال ملاحظتنا لأسلوب التعليم البنكي أن هذا التعليم يميز مرحلتين في حركة المعلم ، أولاً مرحلة استيعابه شيئاً حين يحضر الدرس وثانياً مرحلة القيام بالشرح حين يواجه الطلاب ولا يشترط في الطلبة بهذا الأسلوب ان يعرفوا الدرس بل المهم أن يتذكروه ويحفظوه ، ذلك أن الدرس هو في النهاية ملك خاص للاستاذ وليس موضوعاً يستثير الحاسة النقدية بين الطالب والأستاذ ، وهكذا فباسم المحافظة على الثقافة والمعرفة نجد أنفسنا بآراء نظام يتكرر للثقافة والمعرفة ، وعلى عكس ذلك فإن أسلوب طرح القضايا في التعليم لا يوجد عملية التعليم ولا يجعل منها عملية ذات طرفين أحدهما يتلقى والآخر يلقي بل يجعلها عملية تعلم مستمر ، سواء كان المعلم في لحظة اعداد الدرس أو مشتركاً في الحوار مع تلاميذه ، فالمدرس في هذه الطريقة لا يتخذ من الموضوعات ملكاً خاصاً له بل يستخدمها للاشتراك في التبصر بها مع تلاميذه وبهذه الطريقة يمارس عملية اصلاح مستمرة مستمدة من رؤيته ورؤية تلاميذه ، فدور التلاميذ هنا لا يقتصر على الاستماع فقط بل هم يشاركون بالتقد والبحث والحوار مع المدرس وبصورة إيجابية ، وإذا عدنا نسأل عن دور المدرس وجدناه يتركز في تحضير المادة للطلبة للنظر فيها ، ومن خلال فحص الطلبة للمادة يبدأ هو نفسه اعادة النظر في موقفه السابق منها . أما دوره في طريقة عرض القضايا والمشكلات فيتلخص في مشاركة تلاميذه في تهئية المناخ الملائم لعملية التعلم، ذلك في الوقت الذي يعوق فيه المنهج البنكي اطلاق مثل هذه القوى الابداعية للطلاب ، ففي الوقت الذي يهتم فيه منهج عرض المشكلات بتعرية الواقع وكشفه أمام الطلاب فإن المنهج البنكي لا يستهدف سوى اضعاف الاحساس بالواقع .

وهكذا فالطلبة الذين يواجهون خلال عملية التعلم بسبل متصل من المشكلات الواقعية يشعرون بنوع من التحدي كما يشعرون بمسئوليتهم في مواجهة ذلك التحدي ، ومن هنا يبدأون عملية الاتصال بواقع حياتهم ، فقدرتهم على مواجهة التحدي تبعث في نفوسهم مزيداً من الشعور لمواجهة تحديات جديدة بما يفتح أمامهم مزيداً من الفهم والالتزام ، وهكذا فإن مفهوم التعليم كخبرة من أجل الحرية والذي يختلف عن مفهوم التعليم كوسيلة للسيطرة يرفض معاملة الانسان

كوجود شبحي منعزل عن هذا العالم الذي يعيش فيه كما يرفض الاعتراف بحقيقة وجود العالم بعيداً عن وعي الانسان به ، فالوعي بوجود العالم لا يسبق وجود الانسان ولا يتخلف عنه .

لقد حدث في احدى تجمعاتنا في « شيلي » أننا كنا نناقش المفهوم الانثربولوجي للثقافة ، وخلال ذلك وقف أحد الفلاحين الذي هو بحسب المفهوم البنكي يعتبر جاهلاً تماماً فقال : لقد عرفت الآن أنه بدون الرجال فليس هنالك عالم . ورد عليه المعلم على الفور دعنا لأجل الجدل نفترض أن كل الرجال في هذا العالم قد ماتوا ألا يبقى العالم بأشجاره وأطيابه وحيواناته وأنهاره وبحاره ونجومه ؟ اليست هذه جميعاً هي العالم ؟ فأجاب الفلاح بثقة لا لأنه لن يوجد هنالك شخص يقول هذا هو العالم . لقد كان الفلاح يريد ان يقول ان عدم الاحساس بالعالم يعني عدم وجوده ذلك أن الانسان لا يمكن له أن يعيش دون أن يحس بوجوده وان لم يحس بوجوده فالعالم بالنسبة اليه غير موجود كما أنه هو نفسه غير موجود . . اذاً فالانسان يبدأ في تمييز الأشياء عندما يحس بها كما يقول « هوسرل » .

وهكذا ففي نظام التعليم عن طريق طرح المشكلات يبدأ الناس في تطوير ملكتهم النقدية من خلال طريقتهم في الحياة ومعطيات العالم الذي يعيشون فيه . انهم يبدأون في رؤية العالم ليس على أنه كتلة جامدة بل على أنه حركة متطورة ، وعلى الرغم من أن العلاقة الجدلية بين الانسان والعالم تظل مستقلة عن الكيفية التي يرى الانسان بها هذه العلاقة أو لا يراها ، فمن المؤكد أن أسلوب الفعل الذي يتخذه الانسان في الحياة يعتمد الى حد كبير على نظره الى العالم ، واستناداً على ذلك فان علاقة المعلم والطالب والمعلم تنعكس على كل منهما وعلى العالم دون عزل لهذا الانعكاس عن الواقع وينشأ بذلك ما نسميه الفكر والعمل . مرة أخرى فعندما يبدأ الصراع بين المنهج البنكي ومنهج طرح المشكلات يعتمد المنهج الى تمويه الحقائق وحجب الكيفيات التي يعيش بها الناس في هذا العالم ، أما المنهج الآخر فيقوم بالدور المعاكس ، فبينما يرفض المنهج البنكي أسلوب الحوار فان منهج طرح المشكلات يعتبر الحوار أساساً من أجل فهم العالم ، وبينما يعامل المنهج

الطلبة كآشياء يطلبون المساعدة فان المنهج الآخر يهيئهم ليصبحوا نقاداً ومفكرين .

ويتضح من ذلك ان المنهج البنكي يعوق نزععة الابداع ويمنح الى التدجين من أجل أن يحول بين الانسان وممارسة حريته وعلى العكس من ذلك فإن منهج طرح المشكلات يساعد على الابداع ويستفز نزععة الفهم والتبصر بحقائق الوجود وبالتالي فانه يحقق انسانية الانسان لكونه يقوده نحو الابداع والتطوير وعلى وجه الاجمال فان المنهج البنكي وتطبيقاته يفشل في أن يعتبر البشر مخلوقات تاريخية ذلك في الوقت الذي يعتبر فيه منهج طرح المشكلات حقيقة أن الانسان كائن تاريخي نقطة البداية في أي تحرك .

وهنا يبدو أن منهج طرح المشكلات أساسه اعتبار الناس كائنات في مرحلة الصيرورة أي أنهم يمارسون وجوداً غير مكتمل وهذه ظاهرة تميز الانسان عن سائر الكائنات في مملكة الحيوان التي تملك بدورها وجوداً غير مكتمل ، فالكائنات في هذه المملكة لا تملك وجوداً تاريخياً لأنها لا تعي كالانسان حقيقة عدم كمالها فالانسان يعترف بأنه كائن غير كامل وهذا ما يدعوه لأن يتخذ التعليم وسيلة من أجل تطوير نفسه ، وانطلاقاً من ذلك فان التعليم ما هو الا عملية اعادة صنع من أجل تحويل الكينونة الى صيرورة كما هو الحال في المفهوم « البرغسوني » ، أما الطريقة البنكية فتؤكد الكينونة فحسب ، ومن هنا يتضح أن نظام التعليم عن طريق طرح المشكلات لا يعترف بالحاضر المشرق ولا بالمستقبل المحدد سلفاً وانما يشغل نفسه بعملية ديناميكية تضرب جذورها في الحاضر وتنتجه نحو المستقبل بثورية ، وهذا المنهج يتسم بالثورية والنبوءة المفعمة بالأمل ، وذلك ما يطابق الحقيقة التاريخية للانسان ، فهو يعترف بحقيقة الوجود الانساني المتسامي والمتجه دوماً الى الأمام والذي يعتبر الجمود تهديداً له بالفناء وهو يعتبر النظر الى الماضي مجرد وسيلة يتفهم بها كيف ومن يبنى عالم المستقبل بحكمة ؟ وهكذا فان هذا المنهج انما يعرف الرجال المدركين لحقيقة عدم كمالهم نقطة البدء في حركتهم التاريخية والأهداف المناط بهم تحقيقها ، فنقطة البدء في هذه الحركة تكمن في داخل الرجال أنفسهم وبما أن الرجال لا ينفصلون عن العالم والواقع فان الحركة لا بد لها أن تستمر في علاقة جدلية مع

العالم وبالتالي فلا بد للحركة ان تكون مع الرجال الذين هم هنا والآن ، فالبدء من هذا الموقف يجعل الرجال يواجهون التحديات .

وبينما يؤكد الأسلوب البنكي بطريقة مباشرة أو غير مباشرة قدرية المصير الانساني فان منهج طرح المشكلات يطرح هذه المشكلة باعتبارها قضية تستوجب حلاً وهكذا فعندما يعي الرجال أهدافهم تتلاشى رؤيتهم السابقة لتحل محلها رؤية واقعية للعالم ، فالوعي العميق بالموقف يؤدي بالرجال الى أن يتفهموا حقيقة المواقف التاريخية وقابليتها للتطوير . واستناداً على ذلك فان اي رجال يتدخلون من أجل إيقاف عملية البحث المتطورة هذه انما يقومون بنوع من العنف يستهدف صرف الناس عن اتخاذ قراراتهم بأنفسهم وبالتالي تحويلهم الى أشياء ، غير أنه من المحتمل أن تسير حركة الرجال نحو تحقيق انسانية الانسان وذلك قدر تاريخي ، ومن هنا يبدو أن تحقيق الانسانية لا يمكن أن يكون عملاً فردياً يتم في عزلة وانما لا بد له أن يتم في إطار من الزمالة والتلاحم ولذلك فهو لا يغفل التناقض القائم بين حقيقة القاهرين والمقهورين ، فليس هنالك رجل يعتبر نفسه انساناً بينما يحرم الآخرين حقوقهم الانسانية . كذلك فان محاولة الانسان أن يكون أكثر اكتساباً للحقوق الانسانية من غيره يزيد من أنانيته وهو ضرب من اللاتسانية وباختصار فان سطوة رجال ما يجب ألا تغف في وجه رجال آخرين تحول دونهم ودون تحقيق انسانيتهم .

وينبنى على ذلك كله أن المنهج الذي يقوم على طرح المشكلات والذي يستهدف تحرير الرجال وتحقيق انسانيتهم يستوجب منهم أن يقاتلوا من أجل التحرير وهذا المنهج يمكن كلا الطلبة والاساتذة من عملية التعلم كما يمكنهم من تجاوز ظاهرة الاحتكار الثقافي ويمكن الرجال من تجاوز الخضوع للتصورات الكاذبة عن العالم . فالكلمة في هذا المنهج لا تفسر بكلمة كاذبة وانما هي وسيلة لتطوير الرجال من أجل تحقيق انسانيتهم وبذلك لا يستطيع القاهرون ان يستفيدوا من هذا النظام أو يستخدموه لتكريس القهر، ذلك أن نظام القهر لا يسمح للمتعلم بالتساؤل . أما في ظل النظام الثوري القائم على منهج طرح المشكلات فباستطاعة الانسان أن يتساءل ولا شك أن القادة سيستخدمون هذا الأسلوب قبل أن يسيطروا على السلطة لكونهم

لا يستطيعون خلال العملية الثورية تطبيق المنهج البنكي لأنه يحول دون المعلمين وممارسة الثورة ، ذلك أن الثورة تحتم على القادة استخدام أسلوب الحوار من البداية .

الفصل الثالث

برنامج التعليم الحوارى

بعد أن بينا قيمة الحوار في المفهوم الانساني نعود لتكشف عن طبيعة الحوار في ذاتها ، فالحوار في نظري هو الكلمة ، والكلمة هي مدلولها الحقيقي تتجاوز قيمتها كوسيلة يتحقق بها الحوار وذلك لما تتميز به من بعدي الرؤية والفعل ، فهذا البعدان متلازمان بحيث لا يغني أحدهما عن الآخر .

وعلى وجه العموم فليس هنالك كلمة حقيقية غير قابلة للتنفيذ في واقع الحياة ، وذلك ما يميز الكلمة الصادقة بأنها هي القادرة على تغيير العالم ، أما حين تجرد الكلمة من أحد البعدين السابقين فانها تصبح عاجزة عن القيام بدورها وتتحول الى مجرد ثروة فارغة المحتوى . وبنفس القدر فان قيمة الكلمة العملية تحتوي على ما في داخلها من رؤية فالعمل من غير رؤية يلغى حقيقة الحوار ولا يتحقق به شيء على الاطلاق . وهنا يمكننا أن نقول ان الوجود الانساني لا يمكن له أن يظل صامتاً كما لا يمكن له أن يحيا على الكلمات الفارغة ، فالكلمات التي تحييه وتعمل على تغيير العالم هي الكلمات المفعمّة بالرؤية الصادقة ، وينبني على ذلك أن العيش انسانياً يعني معرفة العالم والعمل على تغييره ، فبمجرد أن يعرف الانسان العالم تتجلى حقيقته ، في نظره كمشكلة تتطلب حلاً، ويتضح من ذلك عدم وجود الرجال في عالم الصمت ، فالرجال لا بد لهم من الحوار والعمل المتبصر بالوعي والادراك ، وعندما نغيب الى الرأي القائل ان الكلمة وحدها هي التي تقود الى العمل الذي يغير العالم تؤكد في ذات الوقت أن هذه الكلمة ليست حكراً على طائفة معينة من الرجال وانما هي ملك للناس جميعاً ، وذلك يعني أن الكلمة الصادقة لا يمكن أن يقوها رجل واحد سواء كان ما يقوله لنفسه أو للآخرين ، فاصرار مثل هذا الرجل على اسماع كلمته وحدها يعني تجريداً للآخرين من فرصتهم في أن يقولوا كلمتهم أيضاً

ويبدو من ذلك أن الحوار هو المواجهة الحقيقية بين الرجال من أجل تسمية العالم حولهم ، وما دام أمره كذلك فإنه لا يمكن أن يتم بين أولئك الذين يريدون تسمية العالم ومعرفته وبين أولئك الذين لا يريدون ذلك كما لا يمكن أن يتم بين الذين يحق لهم أن يقولوا كلمتهم والذين لا يريدون للآخرين قول كلمتهم في هذا العالم . وهذه الحقيقة في ذاتها هي التي تجعل أول عمل يقوم به المستلبون في تحقيق حريتهم هو أن يستعيدوا حقهم في قول كلمتهم ويوقفوا استمرارية الاستلاب اللاإنساني الذي مورس ضدهم .

لقد أسلفنا القول أن الكلمة هي الوسيلة التي يغير بها الرجال العالم من حولهم وذلك لكونها تمكنهم من معرفة هذا العالم ونؤكده مرة أخرى أن الحوار أيضاً هو وحده القادر على تمييز قيمة الرجال ، وذلك ما يجعله ضرورة وجودية ، فما دام الحوار هو أسلوب المواجهة الذي يغير به الرجال عالمهم ، فإنه لا يمكن أن يجرّد من خصائصه الرئيسية ليصبح تعبيراً عن أفكار رجل واحد أو دعت في رؤوس الآخرين أو مجرد ثروة يتبادلها المتنافسون كما لا يمكن أن يكون مواجهة عنيفة بين رجال لم يلتزموا بتسمية العالم والبحث فيه عن الحقيقة ، فأمثال هؤلاء الرجال لا يستهدفون سوى فرض الحقيقة التي يعرفونها على الآخرين ، فما دام الحوار هو مواجهة بين رجال يستهدفون معرفة العالم فإنه لا يمكن أن يكون فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقي ذلك أن الحوار عمل إبداعي يحتم ألا يستخدمه الناس كوسيلة ، يستغلون بها الآخرين ، فالاستغلال المتضمن في مفهوم الديالوج هو ذلك الذي يمكن المشتركين في الحوار من غزو العالم من أجل تحرير الإنسان ، ذلك أن تسمية العالم التي هي في الحقيقة إبداع وإعادة إبداع لا يمكن لها أن تتم في غياب الحب الذي هو أساس الحوار بل لعله هو الحوار نفسه ، وعلى عكس ذلك فإن السيطرة هي بالضرورة آفة ضد الحب لأنها تمثل في واقعها نزعة سادية يمارسها القاهرون وماسوشية يتمثلها المهثرون ولما كان الحب موقفاً شجاعاً لا يحفل بالخوف فإنه يعترف بالآخرين وحقهم في الحياة وهو حق يتمثل في تحقيق الحرية لهم ، وبما أن الحب موقف شجاع فإنه لا يمكن أن يقوم على مبدأ الاستغلال بل يجب أن يولد في الآخرين الرغبة في تحقيق الحرية ، وبدون هذا الهدف فلا يكون الحب حقيقة ،

ويؤكد هذا أن الغاء القهر هو وحده الذي يحقق الحب لان القهر يعارض الحب بالضرورة ، فاذا لم استطع أن أحب العالم والحياة والرجال فلن يكون في مقدوري أن أقيم معهم أي نوع من الحوار .

واذا كان الحب ضرورياً لبدء الحوار ، فان الحوار لا يمكن له أن يتحقق بدون شيء من التواضع ، ذلك أن تسمية العالم التي هي في الحقيقة عملية متصلة في ابداعه لا يمكن أن تتم في جو من الغرور كما لا يمكن للحوار نفسه كعمل يواجه به الرجال مشكلة العلم والعمل أن يتحقق ان لم يتسم الرجال بشيء من التواضع . اذ كيف يمكن لي أن أدخل في حوار مع الآخرين اذا كنت اعتبر نفسي شيئاً مختلفاً عنهم وكيف أدخل في حوار مع الآخرين اذا كنت اعتبر نفسي من أصحاب الدم الازرق الذين يملكون ناصية الحقيقة والمعرفة وينكرون على ما سواهم أي نوع من الفهم . بل وكيف أحاور الناس اذا كنت أعتقد أن معرفة العالم هي من حق الصفوة وأن دخول السواد في التاريخ يعني بداية الانهيار . كذلك كيف أحاورهم اذا كنت أشعر أن وجودي سيتعرض الى التهديد حين أبدأ عملية الحوار ؟ وهكذا فان القناعة بما تراه الذات وحدها تقيض لمنهج الحوار فالحوار انما يقوم بمسئولية الذين يتصفون بالتواضع ويمكنهم أن يدخلوا في علاقة حوارية مع الآخرين من أجل مشاركتهم في معرفة العالم .

ومن ذلك يتبين لنا أن الحوار يتطلب ثقة بالرجال وملكاتهم في الصنع واعادة الصنع ويتطلب ثقة في قدرتهم على الابداع واعادة الابداع ومثل هذه الثقة يجب أن تعم جميع الرجال ولا تقتصر على الصفوة وحدها ، فالثقة بالانسان تمثل أهم المقدمات الضرورية للحوار الناجح ، ذلك أن الرجل المحاور يؤمن بالضرورة بالرجال حتى قبل أن يلتقي بهم أو يستمع اليهم ، ولا يعتبر هذا الايمان ضرباً من السذاجة لان مثل هذا الرجل الواعي بادراكه لقدرته النقدية يعلم أيضاً أن غيره من الرجال ممن يضطلعون بعملية التغيير يمتلكون نفس القدرة وذلك ما يجعله يستجيب لمحاولتهم . وحتى في تلك الظروف التي يفقد فيها بعض الرجال قدراتهم على النقد فان الرجل المحاور لا يفقد ثقته في أن يستعيد امثال هؤلاء الرجال ملكاتهم

التفدية مرة أخرى ، ولا يتم ذلك بفضل من أحد بل بفضل ممارسة عملية النضال من أجل الحرية ، فبغير الثقة في الرجال يتحول الحوار الى كوميديا لا تخلو من الاستغلال الابوي .

وهكذا فان الحوار الذي يقوم على التواضع والثقة يكرس العلاقة الافقية بين المتحاورين ، ولعله من غير المعقول الا تكرس مثل هذه العلاقة في مثل هذه الظروف ، ذلك أن الذي ينشأ من مثل هذا الحوار هي علاقة تضامنية في معرفة العالم وادراكه، وذلك ما يفتقر اليه المنهج البنكي الذي يقوم في الاساس على غير الثقة . ومن واجبا أن نعرف أن الحب الزائف والتواضع المصطنع والايمان الضعيف لا يمكن لها أن تولد مثل هذا النوع من الثقة ، ذلك أن الثقة في كل الظروف هي وليدة الصدق الذي يهدية المتحاورون والتي بدونها لا تكون الأقوال مطابقة للأفعال، ولعله من الطبيعي أن نقول ان الحوار لا يمكن له أن يوجد بدون أمل ، ذلك أن الأمل مزروع في نقص الإنسان وهذا ما يدفعه الى البحث مع بقية الرجال عن الأفضل ، فاليأس هو نوع من الصمت وانكار للعالم بل هروب من مواجهته، ومن هنا نعلم أن مواضع الفهر التي تمتهن فيها كرامة الانسان يجب الا تكون مواضع يأس بل يجب أن تكون منطلقات أمل لأجل تحقيق انسانية الانسان التي أهدرت بسبب عدم العدالة، أما الآمال فانها لا تتحقق حين يعقد الانسان يديه ويجلس منتظرا، بل تتحقق حين يناضل مؤملاً في نتيجة نضاله » فما دمت أناضل فيحق لي الانتظار » .

وكذلك فان الحوار لا يمكن له أن يتخذ من اليأس بيئة له ، فاذا لم يؤمل المتحاورون في نتيجة حوارهم فستصاب بمجهوداتهم بالخواء والعقم والبيروقراطية والملل . وخلاصة الامر ، فان الحوار الصادق لا يمكن له أن يوجد دون تفكير نقدي يشخص العلاقة القائمة بين الرجال والعالم ، ذلك أن التفكير الذي يرى الحقائق كحركة تطوروية غير منفصلة عن العمل هو التفكير الذي يستثير الحوار المجدي . فالتفكير المجدي يختلف عن التفكير السطحي الذي يرى في العمل التاريخي مجرد استعادة للماضي ، ذلك أن المفكر السطحي يولى اهتمامه الأكبر للتأقلم مع الحاضر

أما المفكر الناقد فيرى في المستقبل عملية تطور مستمرة من أجل تحقيق انسانية الرجال وحريتهم .

يقول « بيير فيرتر » .

« ان العالم لا يبدو لي كفضاء يفرض عليّ كتلة من الحاضر يطالبني بأن أتأقلم معها بل هو مجال يتشكل بحسب تصرّفي فيه »

وبالنسبة للمفكر الساذج فان الهدف يتركز عنده في الامساك بقوة بهذا الفضاء المضمون وبذلك فهو ينكر عامل الوقت وينكر نفسه أيضاً .

إذا الحوار وحده هو الذي يحتاج الى التفكير الناقد وهو وحده القادر على توليد التفكير المبدع ، فبدون الحوار لا يوجد اتصال وبدون اتصال لا يوجد تعليم ، فالتعليم الحق هو القادر على حل التناقض في علاقة الطالب والاستاذ وهو الذي يجعلهما مشاركين في عملية واحدة، ومن هنا يتأكد أن الصفة الحوارية للتعليم كمظهر للحرية لا تبدأ حين يقابل المدرس التلميذ في موقف تعليمي بل تبدأ حين يسأل المدرس نفسه عن القضية التي سيجعلها موضوعاً للحوار مع التلميذ ، ذلك أن معرفة موضوع الحوار تعني الاهتمام السابق بموضوع التعليم . وعلى غير هذا النهج فان معلم المنهج البنكي يقتصر محتوى البرنامج عنده في المادة التي سيلقيها على الطلاب والتي سيجيب فيها على اسئلته الخاصة والتي حددها في برنامجه وهذا منهج يختلف عن منهج المعلم الذي يطرح المشكلات ولا يعتبر التعليم منحة يهديها للطلاب أو فرضاً يفرضه عليهم أو وديعة يودعها عقولهم ، فالمادة عند هذا الاستاذ هي نوع من العرض المنظم والمنسق للأشياء التي يريد الطلاب أن يعرفوا عنها ، وهكذا فان التعليم الحق لا يقوم به زيد عن عبيد أو عبيد عن زيد بل يقوم به زيد وعبيد كلاهما مع العالم الذي يثير الاندهاش والتحدي فيولد فيهم الآراء عنه ، ولعل ما تحمله هذه الآراء من قلق وشكوك وآمال ويأس هي التي تمنح الاساس الذي تقوم عليه نظريات التعليم ، وهكذا ففي سبيل الرغبة من أجل خلق انسان ممتاز فان النظرة السطحية غالباً ما تتجاهل حاضر الرجال الحقيقي . وكما عند « بيير

فيرتر « فان الانسانية الحققة تتطلب منا احساساً بالانسانية في صورتها الكاملة وذلك ما لا يمكن أن يتم عن طريق المنهج البنكي حيث لا يمكن أن تمنح المعرفة بواسطته الى العمال والفلاحين ولا يمكن أن يتمخض عنه ظهور الانسان الصالح الذي وضعناه في برنامجنا . لقد فشلت كثير من الخطط السياسية والتعليمية لان واضعيها خططوها انطلاقاً من تصوراتهم الخاصة للواقع دون اعتبار الحقيقة الرجال الذين وضعت الخطط في الأساس من أجلهم ، وهكذا فبالنسبة للمعلم الانساني فان الثورة الحققة تعني تغيير الواقع بالرجال ومعهم ، فالقاهرون وحدهم هم الذين لا يرغبون في مثل هذا التغيير ولسوء الحظ فان القادة الثوريين من أجل كسب تأييد الرجال للعمل الثوري فانهم كثيراً ما يلجأون الى الأسلوب البنكي حيث يمارسون التخطيط من أعلى فتجدهم يواجهون الفلاحين والعمال بمشاريع ككل ارائهم الخاصة عن العالم ولا تأخذ في الاعتبار آراء الجماهير ، فهم بذلك يتسبون هدفهم الاساسي وهو النضال الى جانب الجماهير من أجل استعادة حريتها المستلبة لا من أجل اكتسابهم لدعم سلطة القيادة ، ومن الطبيعي أن نقول ان تدعيم القيادة فحسب أمر لا يدخل في قاموس الثوريين الحقيقيين وانما يدخل في قاموس القاهرين ، ذلك أن دور الثوريين هو تحرير الجماهير المقهورة وتحرير أنفسهم في ذات الوقت ، ومن ثم فلا يقتصر دورهم على كسب الجماهير لصالح قيادتهم . غير أنه ومن خلال الحركة السياسية تعمد الصفوة الى استخدام المنهج البنكي لاشاعة مزيد من السلبية في صفوف المقهورين وتنتهز الصفوة هذه السلبية لئلا صدور الجماهير بالشعارات التي تخيفهم من الحرية ولا يتفق مثل هذا العمل مع العملية التحريرية التي تستهدف نزع شعارات القاهرين لا تثبيتها ، وعلى العموم فان الثوريين الانسانيين لا يستهدفون استبدال شعارات القاهرين بشعاراتهم جاعلين من المقهورين حقل تجارب لتلك الشعارات بل هم في الحقيقة يستهدفون تنوير المقهورين لاقتلاع الازدواجية التي تستبطن القاهرين في داخل نفوسهم حتى يتسنى لهم أن يمارسوا وجودهم الانساني الحق . ويحتم هذا العمل الا يذهب قادة الثورة الى الجماهير كي يملأوها بشعاراتهم عن الخلاص بل عليهم أن يصلوا معهم بواسطة الحوار الى تفهم واقعهم في ظروف العالم الذي يحيط بهم ، ومن الطبيعي ان نقول ان الانسان لا يستطيع أن يقول كثيراً عن برنامج سياسي أو تعليمي يتجاهل موقف الناس من العالم ، فمثل هذا البرنامج

هو في حقيقته غزو ثقافي مفعم بالذنوايا الطيبة ولكنه لا يستطيع أن يحقق اهداف
المقهورين. ويتضح من ذلك أن أولى المسائل التي يتطلبها البرنامج التعليمي أو
السياسي للحركة الثورية هو أن يجسد واقع الناس ذلك أن اظهار بعض التناقضات
يضع الناس أمام المشكلات التي تتحدى وجودهم والتي تتطلب مجابهتهم لها . ليس
بالطبع على المستوى الثقافي فحسب بل على المستوى العملي أيضاً . وفي مثل هذا
البرنامج يجب الا نركز على الحاضر وحده اذ لا بد ان يشتمل البرنامج على تجارب
الناس الماضية مظهراً الشكوك والمخاوف التي أرقت ضمائرهم فيما مضى .

وهنا يجب الا نتحدث الى الناس عن ارائنا نحن في العالم أو أن تفرض عليهم
ما نراه صحيحاً بل يجب أن ندخل معهم في علاقة حوارية يكون محورها أرائهم عن
العالم . وسندرك من هذا الحوار أن اراءهم عن العالم هي صميم خبرتهم ووعيمهم
به . وأما العمل السياسي والتعليمي الذي لا يتنبه الى هذه الحقيقة فسيقابل نفسه في
اطار المفهوم البنيكي أو الوعظي وبالتالي فلن يتمكن من حل قضايا التقدم والتغيير ،
ففي مثل هذا المنهج كثيراً ما يتحدث المعلمون والسياسيون بلغة لا يفهمها الناس
وذلك ما يحتم أن تكون لغة المعلم والسياسي - الذي هو بدوره معلم أيضاً - شبيهة
بلغة الناس تعتمل بفكرهم ورائهم وذلك ما يتطلب من المعلم السياسي كي تصل
مفهوماته الى الناس أن يفهم ظروفهم والطريقة المثلى للتداول معهم ، ذلك أن
عملية التعليم الحققة هي التي تقود المتعلمين الى الحرية وتتم هذه العملية بطريقة
حوارية تكشف عن التصورات المبدعة وتحرك وعي الناس لتمثل هذه التصورات
وذلك ما يحتم أن تكون مادة الحوار مبنية على اراء الرجال عن العالم بل ومستوى
هذه الآراء في رؤية العالم .

وقبل ان اشرع في وصف « الفكرة المولدة » يحق لي أن أبرز بعض الأسور
الهامة ، ذلك أن الفكرة المولدة ليست في حقيقتها فكرة جدلية مخترعة ولا نظرية
تستوجب الاثبات وحتى لو كانت نظرية تحتاج الى اثبات فسوف لن يحاول البحث
الاساس تأكيد طبيعة الفكرة بل سيركز على حقيقة وجود الأفكار الموضوعية أساساً أو
عدم وجودها ، واذا قبلنا محاولة فهم الفكرة الموضوعية وما يتمثل فيها من خصائص

الغنى والأهمية والمشاركة والقدرة على التغيير بالإضافة الى التكوين التاريخي تحتم علينا أن نتحقق مما اذا كانت الفكرة في الاساس ذات طبيعة موضوعية أم لا ، لأنه بتحققنا من ذلك وحده يمكننا بعد ذلك أن نحول عملية الفهم . وعلى الرغم من مشروعية الشك فيبدو من السهولة يمكن تمييز الفكرة المولدة من غيرها ، ليس ذلك بالطبع عن طريق الخبرة الفردية بل عن طريق النظر الناقد للرجال جميعاً حين يتبادلون العلاقة مع العالم الذي يعيشون فيه ، ولعل هذه النقطة تحتاج الى مزيد من الاهتمام ، ونقول في ذلك أن الانسان وحده من بين المخلوقات الناقصة هو الذي يستطيع أن يجعل من نفسه وأعماله موضوعاً لادراكه وهذه القدرة هي التي ميزته عن سائر الحيوانات التي لا تستطيع أن تميز أفعالها بعيداً عن ذاتها ومن ثم لا تستطيع أن تفكر فيها ، ففي مثل هذا التمييز السطحي تتحدد مجالات العمل لكل من الانسان والحيوان . ولما كان العمل بالنسبة للحيوان هو امتداد لذاته فهو لا يستطيع أن يفصل بين العمل وذاته ولا يستطيع بالتالي أن يحدد لنفسه أهدافاً يستطيع بموجبها ان يغير العالم . ويمكننا على وجه الاطلاق أن نقول ان الحيوانات كائنات تعيش لذاتها وعدم قدرتها على اتخاذ القرار وتحديد الاهداف هو الذي يجعلها تعيش في عالم بدون معنى لأنه عالم يفتقر الى الحاضر والمستقبل أو على وجه أصح هو عالم بدون تاريخ سيطر عليه حاضر متصل . وهذا العالم غير التاريخي لا يشبه العالم الذي يعيش فيه الانسان ذلك أن العالم بالنسبة للحيوان مجرد مسرح يعيش فيه وهو مكان لا يواجه فيه التحديات بل ينساق فيه الى غرائزه وهو استناداً على ذلك لا يتحمل مسئولية المخاطرة لأنها غير معروفة لديه ، أما بالنسبة للانسان فالمخاطرة ليست واقعاً مجسداً يراه بعينه بل هي ظاهرة تدل عليها علامات يعرفها ، وعندما يخوض التجربة فهو يضع في ذهنه كل الاحتمالات لان المغامر لا يملك أن يحدد نتائج مغامرته . ولما كانت الحيوانات على غير هذه الشاكلة فانها لا تستطيع أن تلتزم وذلك لانعدام فاعليتها في البناء والتطوير وعدم احساسها بقدرة العالم على تدميرها ، فهي لا تستطيع أن تحول العالم الى شيء ذي مغزى أي لا تستطيع أن تحول العالم الى عالم من التاريخ والثقافة . وكنتيجه لذلك فان الحيوانات لا تستطيع أن تقرر « حيونة » وجودها ولا تختلف حياتها في الغابة ككائنات في ذاتها عن حياتها في حديقة

الحيوان ، وبالعكس ذلك تماماً فإن الرجال يكونون دائماً على وعي تام بانشطتهم والعالم الذي يعيشون فيه ، فهم يتصرفون بناء على أهداف يقترحونها بأنفسهم ويحددونها حسب علاقتهم مع العالم والآخرين ، وهكذا تجدهم يفعمون العالم ببطاقتهم المبدعة ، وعلى غير ما هو الأمر مع الحيوانات فإن الرجال لا يعيشون فقط بل هم في الحقيقة يحيون وحياتهم بالضرورة ذات قيمة تاريخية ، ولا تتميز الحيوانات بهذه الخصوصية لأن حياتها ذات قيمة مؤقتة أو غمطية مسطوحة ، فالرجال يعيشون في عالم يحدثون فيه تغييراً متصلاً ، وأما الحيوانات فاعلمنا تعيش بالعادة ولا يعني المكان بالنسبة لها سوى موضع تمارس فيه وجودها ، وعلى غير ذلك فإن الرجال يعتبرون العالم تجسيداً فيزيقياً يمارسون فيه وجودهم التاريخي . ونستطيع أن نقول على وجه أدق ان الحيوان لا يعنى معنى المكان والزمان والغد والأمس ، فهو يفتقر الى الوعي بمثل هذه الأمور وأما الرجال فلأنهم يعون حقيقة أنفسهم وحقيقة العالم الذي يعيشون فيه فانهم يعيشون في علاقة جدلية مع العالم يستكشفون فيها أبعاد قيودهم والآفاق التي تحررهم منها . وبمجرد أن يميزوا أنفسهم عن العالم وعما يقومون به من أفعال ويصبح في مقدورهم تحديد موقفهم من أنفسهم في علاقتها مع العالم يبدأون في تجاوز قيودهم الشخصية بمواجهة التحدي الذي يسميه « فيراينت » رد الفعل وهي مجموع المواقف التي تقضي على السلبية وتتجاوز العقبات . وهكذا فليست التحديات في ذاتها هي التي تخلق اليأس بل الزاوية التي ينظر منها الناس الى هذه التحديات هي التي تحدد يأسهم وأملهم . ولما كان النقد الواعي متضمناً في العمل فإن الأمل والثقة كفيلا بأن يقودا الانسان لتجاوز الصعاب في حقبة تاريخية لتبدأ صعاب جديدة يحاول تجاوزها بأمل جديد .

وهكذا فإن العالم كمسرح للحيوان ليس فيه أي نوع من التحدي بسبب طبيعته غير التاريخية ، ومن ثم فلا تستطيع الحيوانات أن تحرب الوسائل التي تتجاوز بها الصعاب والتي تتطلب موقفاً حاسماً من العالم يتلخص في معرفة الأهداف التي يتم بها تطويره . ولقد لخصنا دور الحيوان في التأقلم مع العالم . وهكذا فعندما يبني الحيوان عشاً أو خلية أو حجراً فهو في الحقيقة لا يواجه بذلك تحدياً بل يلبي حاجة عضوية غريزية طبيعية ، ذلك أن حاصل عمل الحيوان يرتبط مباشرة بوجوده

العضوي ، ولكن الانسان غير ذلك لأنه يواجه عمله بحرية وتصدر أعماله عن وعي بها، وجميع الأعمال التي تصدر عن وعي هي التي يكون لها معنى وهي التي تجسد العالم في النهاية .

ويتلخص الفرق بين الحيوان الذي لا يستطيع أن يعي شيئاً والانسان الذي يدرك حقيقة ابداعه فيما نسميه الممارسة المبدعة للثقافة والتاريخ ، فالانسان وحده هو القادر على مثل هذا العمل بفضل وعيه ومعرفته وعمله، وذلك بالطبع ما يفترق اليه الحيوان، ويبدو لنا أن الرجال في مواجهتهم للعالم لا ينتجون بضائع مادية فحسب وإنما ينتجون أيضاً أفكاراً ونظماً ومفاهيم ، ولما كان الرجال قادرين على تحويل الزمن الى ماض وحاضر ومستقبل فهم أيضاً قادرون على تطوير العالم من خلال مراحل واضحة المعالم، وهي ليست مراحل مغلقة أو جامدة بل هي في الحقيقة مراحل متداخلة ومتواصلة من أجل استمرارية حركة التاريخ حيث كل حقبة من هذه الحقبة تتميز بأرائها ومفاهيمها وآمالها وشكوكها وتحدياتها وهذه الأمور جميعاً هي التي تكون الاساس الذي تقوم عليه الحقبة بأسرها وهي التي تولد ما يعاكسها ليصبح موضوعاً لعمل جديد .

ويتضح لنا أن هذه التركيبة المتداخلة من التصورات هي التي تعطي العالم قيمته التصورية ، وبما أن الناس يختلفون في تصوراتهم للعالم فأنت تجدهم يتخذون منه مواقف متناقضة ، فبينما يرغب بعضهم في المحافظة على الهياكل الموجودة يتجه آخرون نحو تغييرها وكلما اتسعت الهوة بين التصورات المختلفة للعالم اكتسب الناس رؤية ضبابية عن الحقيقة لأن الذي يسود في مثل هذه الحال هي المذهبية واللاعقلانية وتلك من الأمور التي تهدد التصورات ذاتها لأن التصورات في مثل هذه الحال تبدأ في فقدان فاعليتها الديناميكية وخصائصها الأصلية . وفي هذا الجو يصبح الفكر الخرافي قوة مهيمنة على العقل البشري، وفي مثل هذا الجو أيضاً يجد الفكر المناقض والذي يحاول أن يكشف حقيقة الخرافة - ليحقق التجديد المؤدي الى حرية الانسان - صعوبة في تحقيق ذاته ، ومن ذلك يتبين لنا أنه في الوقت الذي يحاول فيه الانسان تجاوز العقبات التي تحد تصوراتهِ للعالم فإن هذه التصورات

نفسها قد تصبح في بعض الأحيان عقبة لا بد من تجاوزها، وباختصار فإن كل موقف من المواقف سواء كان يعوق التقدم أو لا يعوقه لا بد وأن يجد فئة من الناس تستفيد منه وأخرى تتأذى به ومن أجل ذلك فالمطلوب دائماً هو التصور ذو المضمون المحقق في النهاية لحرية الإنسان .

وقد توجد « الأفكار المولدة » في إطار دائري ينتقل فيه الإنسان من الأعم إلى الأخص ، غير أنني أرى أن أهم تصور يشغل مرحلتنا هذه هو موضوع الاستغلال والسيطرة وهذا ما يدعونا إلى أن نواجههما بما يقابلهما وهي الحرية ، فمن أجل تحقيق الإنسانية والقضاء على الاستلاب فلا بد من القضاء على الظروف التي حولت الناس إلى مجرد أشياء ، فنحن نلاحظ في إطار الدوائر الضيقة وجود تصورات معينة وعقبات تحددها وهذه العقبات مشتركة في جميع المجتمعات الإنسانية ، وعلى سبيل المثال فإن المتخلف الذي يعني الاعتماد على الغير يمثل صورة مشتركة للعقبات التي تواجه مختلف دول العالم الثالث وهذه العقبات تتضمن معنى آخر وهو ضرورة أن تتجاوز هذه المجتمعات واقعها المتخلف لتلحق ببقية الدول المتقدمة ولا ينفي ذلك أنه خلال كل مرحلة تاريخية فإن كل مجتمع من المجتمعات إلى جانب مشاركته ببقية المجتمعات الأخرى - سواء على المستوى العالمي أو القاري - بعض المظاهر فإن له مشكلاته الخاصة التي يتميز بها وهذا ما نجعلنا نرى في الأطار الضيق تصورات أو موضوعات متعددة في داخل المجتمع الواحد نفسه تختلف بحسب المناطق وتنسياتها فيه وعلى سبيل المثال فأنت تجد في داخل المجتمع الواحد مخاض كثيرة لا تواكب المرحلة التي يعيشها المجتمع ، فقد لا تمثل الرؤية الوطنية الكبرى في داخل الوحدات الصغيرة في المجتمع أهمية كبرى ، وبالرغم من ذلك فإن وجود مثل هذه التصورات المشوهة في بعض قطاعات المجتمع لازم لأن عدم وجودها يعني أن المجتمع ما زال يروح تحت ظروف القهر . وعلى العموم فإن الضمير المفقور الذي لم يستطع أن يبين العقبات التي تحول دون انطلاقه في صورتها الشاملة يستطيع أن يبين بعض مظاهرها ويعزو إليها جميع الأسباب التي تحول دون انطلاقه وهذه حقيقة مهمة لا بد من إدراكها قبل اكتشاف التصور الفعال للخروج بالمجتمع من واقعه ، فذلك أنه عندما يحس الناس عن تحليل واقعهم بصورة شاملة ويكتفون برؤيته رؤى مجزأة فإنهم لا

يستطيعون تفهم موقفهم ، ولأجل أن يفهم الناس واقعهم عليهم أن يعودوا الى نقطة البداية لينظروا الى واقعهم نظرة شاملة من أجل أن يتعرفوا على حقيقة تلك الاجزاء التي استبانوها في أول أمرهم ليكونوا نظرة شاملة مستمدة من واقعهم .

ومن المناسب أيضاً في منهج البحث عن التصورات أو في منهج طرح المشكلات أن يحاول الفرد تجميع العناصر المختلفة الى بعضها ليكون منها صورة متكاملة ، فهذا الموقف وحده يستطيع الانسان تحديده موقفه من حقيقة المجتمع وهو موقف سيكون قوامه الصحة والعمق ولا ريب ، وفي الحالة التي لا يستطيع الناس فيها رؤية الحقيقة بسبب تعقدها وكثافتها وعدم القدرة على تبينها ، فان أفضل سبل البحث هو التجريد ، ولا يعني ذلك أن يتحول التجريد الى صورة مجردة بل يعني أن يتعاون المجدد مع المجرد في منهج جدلي لتكوين الرؤية المطلوبة وهذه الحركة الجدلية في الفكر تتجلى في أبهى صورها عندما ينتقل الانسان في جدله من المجرد الى المحسوس اي حين يرتقي من الجزئي الى الكلي والعودة مرة اخرى الى الأجزاء أو بمعنى آخر حين يحاول أن يتبين نفسه من خلال المعقول واضعاً في اعتباره أن الفعل موقف مقحم عليه مع رجال آخرين ، فهذا المنهج يؤدي في النهاية الى سيادة المنهج التجريدي القائم على نقد المحسوس الذي توقف عن أن يكون كثيفاً وغامضاً وغير نافذ الى الرؤية الشاملة . فعندما يواجه الانسان بموقف يحاول أن يفك رموزه فان محاولة الفك هذه تسمى « وصف الموقف » وهي التي تساعد على اكتشاف العناصر التي تشكل الصورة الشاملة وحينئذ يصبح الموقف الغامض مدركاً وتسلط عليه الأضواء من جمع الجهات، وبما أن الرموز التي عاجلها الباحث هي صورة للواقع فان الباحث يبدأ ربط هذه الصورة بالواقع الذي يعيش فيه وبهذه الطريقة يبدأ الانسان في التعامل بأسلوب مختلف مع الواقع ، ذلك أن الواقع يصبح في نظره حقيقة واضحة تواجهه بالتحدي الذي لا بد له أن يقبله ، ولا ينفي ذلك بالطبع أنه خلال حل رموز الموقف الغامض يقحم الباحث اراءه الشخصية عن العالم ويتشكل في النهاية موقفه سواء كان متسماً بالقدرية أو الحركية أو الجمود . وتحت أي ظرف من الظروف فلا بد أن يعبر الانسان عن موقفه لان الجماعة التي لا تعبر عن موقفها هي في الحقيقة تتخذ موقفاً درامياً يعرف « بنظرية الصمت » . ونظرية الصمت هي في حقيقتها ضرب من الموت في مواجهة التحديات ، ولا بد لي أن أؤكد أن التصور

المحرك للطاقات لا يمكن أن يوجد بمعزل عن الواقع كما لا يمكن أن يكون هنالك واقع بغير رجال ، فالتصور المحرك هو دائماً حيث تكون هنالك علاقة بين العالم والرجال ولكي نفهم طبيعة هذا التصور علينا أن نعرف كيف يفكر الرجال بالواقع وكيف يعملون من أجل تطويره ، فبقدر ما ينشط الرجال في اكتشاف تصورهم للعالم تتعمق رؤيتهم له ، ولا ريب أن البعض لا يحدون أن يروا الرجال باحثين عن التصورات المجدية للحياة ، لأنهم يعتقدون أن مثل هذا البحث يؤدي إلى مسح الحقائق بتصورات الرجال المتباينة وهذا الرأي خطأ لأنه ينسب على أن التصورات موجودة في صورتها النقية الصامتة خارج ضائر الرجال والأصح، هو أن التصورات والنظريات كلها محكومة بعلاقة الرجال بالعالم، فالحقيقة الواحدة قد تولد تشكيلة من التصورات المولدة تختلف بحسب بيئات المجتمع، وهذا ما يؤكد وجود علاقة بين الحقيقة في ذاتها من حيث هي واقع ومن حيث تصور الناس لها بل ومن حيث التصورات المولدة التي تحدثها . ويبدو من ذلك أن التصورات المجدية هي في الواقع تعبير عن الرجال في لحظات معينة لأن كل مرحلة تختلف ظروفها عن الأخرى وهنا ينبغي على الباحث أن يركز على نقطة البدء ليعرف خلال عملية التغيير أن كان هنالك تغيير قد انجز أم لا ، وعلينا أن ندرك أن الاطماع والدوافع والأهداف المتضمنة في أي تصور أو نظير إنما تسعى إلى تحقيق أهداف إنسانية وبذلك يكتسب التنظير أو التصور أهمية تاريخية ، ولأجل أن نفهم قيمة هذا التنظير فعلينا أن نفهم الرجال الذين أبدعوه والظروف التي أحاطت بهم. وهكذا فإن البحث عن التصورات أو الرؤية الشاملة هو في حقيقته بحث من أجل التبصر بالواقع الذي تكون رؤيته بداية عملية تعليمية أو بداية الثورة الثقافية من أجل تحرير الإنسان. ولا تكمن خطورة البحث في أن يكتشف الرجال الذين يساعدون في البحث وهم موضوعه حقيقتهم كمساعدين فيعوقون نتائجهم بل يكمن الخطر الأكبر في أن ينتقل التركيز من موضع البحث ذاته وهو إيجاد التصور المجدي أو الرؤية الشاملة للمجتمع إلى الرجال أنفسهم فيصبحوا بالتالي ملغى وموضوعاً للبحث وما دامت غاية البحث هي أن يكون عوناً في تطوير برنامج يلبي العلاقة البنكية وقيم مكانها علاقة جديدة بين المدرس والطالب من أجل المعرفة الحقة فلا بد له من أن يقيم دعائمه على علاقة حوارية بين الطرفين لأنه لا يمكن تحويل البحث الموضوعي في حقيقة الإنسان إلى

عمل ميكانيكي . وهذا يتطلب من الباحثين ترجمة المشكلات وتبينها عندما يحاولون الربط بين التصورات المختلفة ، فالبحث يبلغ طاقته التعليمية القصوى عندما يتسم بقدرته النقدية متجنباً التصورات العتيقة للواقع. وينبغي على ذلك أن البحث عن تصورات فعالة لا بد أن يحفل بالتصورات المختلفة ويعالجها كمشكلات ذات قيمة تاريخية وثقافية .

وأما الباحث الذي يعمل باسم الموضوعية العلمية ثم يحول الظواهر العضوية الى ظواهر غير عضوية والذي يحول الحياة الى موت فهو باحث يحشى التغيير وهو لا يرى في التغيير رمزاً للحياة بل يرى فيه رمزاً للموت والفناء ، حقاً هو يرغب في دراسة التغيير ولكنه لا يرغب في دراسته من أجل تطويره بل من أجل وقفه. وهو في تصوره للتغيير رمزاً للموت وفي تصوره للناس ككائنات من أجل أن يبرر صيغته الجامدة إنما يخون ذاتيته الخاصة ويدمر حياته ، وأكرر قولي بأن البحث عن التصورات هو في حقيقته بحث عن واقع التفكير الانساني . انه بحث يتم بين الرجال الذين يبحثون مجتمعين عن حقيقة هذا العالم الذي يعيشون فيه ، فأنا لا أستطيع أن افكر في الآخرين الا اذا كانوا معي وكذلك فلا يستطيع الآخرون ان يفكروا من اجلي دون أن أكون معهم ، وحتى لو كان تفكير الناس ساذجاً وخرافياً فان الطريق الوحيد لتحقيق تطورهم هو الاستمرار في ممارسة التفكير حتى يصلوا في النهاية الى التصور الأمثل ، فالرجال ككائنات في موقف يجدون أنفسهم مزروعين في ظروف مكانية معينة يميزونها وتميزهم وبما أن هذه الظروف تعكس واقعهم وتحداهم فهم لا يكتفون بنقد الوضع الذي هم فيه بل يعملون أيضاً من أجل تغييره .

وهكذا فان الوعي بالوضعية الانسانية هو في حقيقته وعي بالوجود الانساني كله، ذلك أن الانسان في نقده لوضعه يبدأ في اكتشاف الآخرين الذين هم في مثل وضعه ، فالرجال يبدأون عادة في الخروج من واقعهم الذي هم فيه لاكتساب القدرة على تغييره بعد تعريته، وهذا التدخل الايجابي في الواقع هو في حقيقته وعي تاريخي يمثل خطوة الى الامام يعمق دوافعها في نفس الانسان احساسه بوضعيته ومن هنا تتبين

أن الاحساس يعمق الوعي في كل الظروف . ويعكس الأسلوب غير الجدلي أو غير الحوارى أو البنكى ، فإن أسلوب طرح المشكلات انما ينشأ وينظم من خلال آراء الطلاب عن العالم ولأجل ذلك فإن موضوعه يتوسع ويتجدد باستمرار باختلاف تصورات الطلاب ، وهكذا فإن مهمة المعلم الحوارى لا تتركز في تقديم المحاضرات بل في تكريس المشكلة التي يعرضها الطلاب من خلال تصوراتهم للعالم . ولنفترض على سبيل المثال أن جماعة من الدارسين كانت مهمتهم تنظيم برنامج لتعليم الكبار في مجتمع زراعى نسبة الامية فيه مرتفعة للغاية ، في مثل هذه الحال يتضمن البرنامج حلة للتوعية تسبقها مرحلة تمهيدية ، وفي هذه المرحلة يتجه منهج طرح المشكلات الى معرفة التصورات التي ينطلق منها هذا المجتمع ، ولنحاول هنا الكشف عن الموضوعات التي تحدد التصور المجدي لمثل هذا المجتمع ، فبمجرد ان يحدد الباحثون المنطقة التي سيعملون فيها يبدأون في تكوين معرفة أولية عنها بواسطة بعض المصادر الثانوية لمساعدتهم في القيام بالمراحل الأولى من البحث ، ولا شك أن البداية ستواجه بكثير من المصاعب والأخطار كما هو الحال في مثل هذه الأعمال ، وفي البداية يحتاج الباحثون الى عدد من الناس يوافقون على حضور اجتماع غير رسمي لسماع اهدافهم في المنطقة، وفي هذا الاجتماع يتحدث الباحثون عن أغراض بحثهم وكيف يمكن أن يتم وما الفوائد التي ستجنى منه ، وفي ذلك الاجتماع أيضاً يوضحون للناس انه من غير الممكن اجراء البحث بدون التفاهم والثقة المتبادلين ، فاذا وافق المجتمعون على اجراء البحث وتنفيذ ما يترتب عليه بدأ الباحثون على الفور في تجنيد المتطوعين من بين المجتمعين ليعملوا كمساعدين لهم وتكون مهمتهم جمع المعلومات الخاصة بالحياة في المنطقة، ولعل وجودهم المجرى في مثل هذا النوع من العمل هو في حد ذاته ذو أهمية بالغة ، وفي نفس الوقت يبدأ الباحثون زيارتهم الى المنطقة دون أن يفرضوا أنفسهم على الناس ، فالواجب يحتم عليهم أن يظهروا بمظهر المتعاطفين الذين يهتمهم أن يفهموا ما يرونه ، وبما أن الباحثين يأتون الى المنطقة بقيمهم الخاصة فليس هذا مجالاً لفرض تلك القيم ، اذ انهم هو معرفة تصور الناس في المنطقة لواقعهم ، فهذا هو المدخل الحقيقي لهذا الواقع من أجل كشفه ، ولسنا بحاجة الى تأكيد أن مثل هذا التصور لا يمكن فرضه على الناس، ومن هنا يبدو البحث عن تصور الناس لعالمهم كضرب من البحث

التعليمي أو الثقافي ، وهكذا فمن خلال الزيارات المتعاقبة يحدد الباحثون تصوراتهم عن المنطقة موضع الدرس لأجل تحليلها،وهنا يتحتم عليهم أن ينظروا إلى المنطقة ككل شامل من خلال تجميع الأجزاء المختلفة التي لاحظوها خلال زياراتهم المتعددة وسيتمكنون بهذه الطريقة من توسيع ادراكهم للكيفية التي تتفاعل بها الأجزاء المختلفة المكونة للمنطقة وذلك بالطبع سيتمكنهم في النهاية من تكوين تصورهم الشامل .

وخلال مرحلة التحليل هذه يبدأ الباحثون في ملاحظة بعض الحالات في المنطقة سواء كان ذلك بالوسائل المباشرة أو غير المباشرة وعليهم أن يسجلوا كل ما يلاحظونه في مذكراتهم حتى وإن حمل بعض التفاصيل غير المهمة ، ومن الأمور التي ينبغي تسجيلها الكيفية التي يتحدث بها الناس وطرائقهم في الحياة وسلوكهم في العمل والعبادة كما عليهم أن يسجلوا المفردات اللغوية التي يستخدمونها وطرق التغيير ومثل هذه من الأمور ، فالمهم دائماً هو أن يلاحظ الباحثون المنطقة في ظروف مختلفة سواء كان ذلك في ساعات العمل في الحقل أو اللقاءات الاجتماعية أو دور المرأة والشباب،كما ينبغي عليهم أن يسجلوا ماذا يفعل أهل المنطقة في أوقات الفراغ وما هي ألعابهم ورياضاتهم ومادة حديثهم في المنازل والعلاقات الأسرية ، وباختصار يجب ألا تفوت هؤلاء الباحثين أي شاردة أو واردة من حياة هؤلاء الناس .

ومن واجب كل باحث أن يكتب ملاحظاته ويعرضها على بقية أفراد الفريق من أجل درسها وتحليلها سواء بواسطة المتخصصين أو بواسطة مساعديهم من المتطوعين المحليين ولأجل ضمان مشاركة المساعدين فالمفروض أن تعقد الاجتماعات في داخل المنطقة نفسها.وتعتبر مرحلة تحليل نتائج هذه الاجتماعات مرحلة تالية من أجل معرفة الواقع الحياتي لسكان هذه المنطقة فبينما كل باحث يعرض في مقاله الكيفية التي رأى بها الموقف فانه بذلك يتحدى الآخرين الذين مارسوا معه نفس التجربة،وبهذه الطريقة يمكنهم إعادة النظر في كل تصوراتهم السابقة،وهكذا يعود بهم الأمر إلى الوقائع الجزأة التي رأوها لينظروا إليها من خلال علاقة حوارية ككل شامل ، وفي نفس الوقت يشاركون في ذلك ممثلو المنطقة وبقدر ما تتوسع نظرة الباحثين في رؤية المجتمع بقدر ما يتمكنون من ملامسة مركز التناقضات الثانوية

التي يعيشها سكان المنطقة، وبإخضاعهم هذه التناقضات للدرس يمكنهم تصميم البرنامج الصالح للتعليم في هذه المنطقة ، وكلما كان البرنامج قادراً على عكس تناقضات المنطقة كلما أصبح التعليم ذا جدوى، ويمكن للإنسان في مثل هذه الحال أن يؤكد بثقة أن العمل الذي يتم بهذه الطريقة مضمون له النجاح أكثر من العمل الذي يأتي في شكل قرارات من فوق ، فالبدء من مرحلة التناقضات هو في حد ذاته ضرب من التحدي ، فإذا استجاب الناس بقدرية لم يعد أمامهم عمل يؤدونه أما إذا عكسوا درجة وعيهم فانهم سيطورون واقعهم . وهكذا فإن التحدي في أي منطقة يستوجب ما يقابله، لذلك فإن من مهمة الباحثين أن يركزوا على معرفة ما يسميه « جولدمان » الوعي الحقيقي والوعي الكامن ، فالوعي الحقيقي يوحي بعدم إمكان تجاوز الامكانيات غير المجربة ، ولكن من خلال التجربة يدرك الإنسان امكانية هذا التجاوز، وبذلك يتحقق وعيه الكامن، وهكذا فإن الوعي الكامن في مفهوم « جولدمان » هو شبيه بمفهوم « نيكولاي » « الحلول العملية » غير المنظورة ، في مقابل الحلول الآنية المنظورة التي تقابل مفهوم « جولدمان » « الوعي الحقيقي » . وبناء على ذلك فإن الباحثين في مرحلتهم الأولى يتصورون أن التناقضات المعقدة لا تساعد على البدء في البرنامج التعليمي ولكن هذا المفهوم يختص بهم وليس بالناس ، وفي المرحلة التالية وحدها يبدأ الباحثون في عملهم كفريق في اختيار التناقضات لإخضاعها لبحثهم النظري ، وبما أن الظواهر التي تمثل الرموز سواء كانت صوراً أو اسكتشات هي الوسائل التي تساعد الباحثين في تحليلهم ، فإن تحديد هذه الظواهر لا بد له أن يستدل ببعض القواعد في المهمة والا يكتفي بالوسائل البصرية المعروفة . فلا بد أن تمثل هذه المظاهر مواقف معروفة للأفراد الذين أجريت التجربة بينهم حتى يستطيعوا ان يتبينوا ما يرونه من خلال فهمهم المعتاد له لأنه من غير العملي أن يقدم للناس صوراً عن أشياء لا يعرفونها ، ف رؤية الناس لواقعهم السيء السابق يمكنهم من أن يروا بسهولة لماذا يطرحون له البديل .

ومن الأمور المهمة هو أنه خلال تحضير الشريحة فإن على الباحثين ألا يستغرقوا أنفسهم في التفاصيل أو الاختصار المحير لأن الاسترسال في التفاصيل قد يوحي بأن الامر مجرد دعاية كما أن الاختصار والتعقيد قد يحول الامر الى لعبة من لعب التفكير

العقلي ، ويتأكد من ذلك أن على واضعي الظاهرة الشريحية أن يلاحظوا أن اتسام عملهم بالبساطة غير المخلة يفسح المجال أمام أساليب أخرى حتى لا يبدو الأمر وكأنه عمل من أعمال الدعاية ذلك أن التنظيم الشريحي ليس عملاً دعائياً بل هو عمل يستقطب وعي الباحثين وإدراكهم . ولأجل أن تقدم اختيارات كثيرة خلال عملية عرض التصور الشريحي فلا بد أن تتخذ التصورات شكل مروحة شريحية. وهذا الأسلوب يفسح المجال أمام العلاقات الجدلية بين التصورات وما يناقضها . وفي كل ذلك يجب أن تقدم التصورات في مجملها صورة كاملة للواقع والكيفية التي تتفاعل بها الأجزاء من أجل تكوين هذه الصورة الكاملة .

وخلال عملية التجسيم التصوري هذه يبدأ المشتركون في هذا البرنامج تجسيد وعيهم الخاص بالعالم ومن ثم يبدأون في تصور مواقفهم السابقة وتصوراتهم المشابهة عندما جابهوا ظروفاً مماثلة وبهذه الطريقة يصلون إلى تصور جديد للواقع يتسم بسعة أفقه ، وهكذا يتعرفهم على مدى معرفتهم وتصوراتهم السابقة يبدأون في تكوين تصوراتهم ومعارفهم الجديدة وتتواصل هذه التصورات عن طريق البرنامج التعليمي الذي يفتح أمامهم فرص التجريب والتطوير وبذلك تتم السيادة للاحساس الكامن على الاحساس الحقيقي . ولكي يحمل البرنامج التصوري مزيداً من الفاعلية فلا بد أن يحتوي على مزيد من التناقضات عن المنطقة الخاضعة للدراسة من أجل أن تتصل العلاقة الجدلية في عملية التعليم. ولعل من أبرز الذين أسهموا في طريقتنا هذه « جابريل بود » وهو موظف في الخدمة المدنية « الشيلية » ، فخلال عمله في مرحلة ما بعد الاستعداد لاحظ أن الفلاحين يهتمون بالتصورات المطروحة فقط عندما تكون هذه التصورات متعلقة باهتماماتهم ، فإذا ما أقدم المعلم على تحويل الموضوع إلى مجالات أخرى صمت الفلاحون ولم يبدوا اهتماماً . وقد لاحظ أيضاً أنه حتى حين يتناول الموضوع اهتمامات الفلاحين فإن الفلاحين لا يركزون بصورة منظمة في الموضوع ولا يستطيعون تبيين العلاقة بين حاجاتهم الفعلية وبين الأسباب المباشرة وغير المباشرة التي تحول دون تحقيقها ، أو بمعنى آخر فإنهم يعجزون عن تصور الامكان المتاح لهم إذا ما أصبحوا قادرين على تجاوز قيودهم الذاتية . . وعلى اثر ذلك فقد قرر « بود » أن يجرب أوضاعاً مختلفة ، وهنا يكمن اسهامه الحقيقي

حيث قام في البداية بتصوير موقف واقعي بسيط، وكان هذا الموقف يشكل محوراً أو مركزاً لمروحة من التصورات الفرعية ، ولقد أسمى التصور الأول التصور الضروري ، وبعد أن تأكد من وضوح التصور الضروري جعله مرجعاً للمتعلمين لفهم التصورات الفرعية ، وبذلك أثار فيهم الحساس والاهتمام حيث أدى بهم ذلك الى التصور المطلوب ، فبمقابلة التصور الأساسي مع التصورات الفرعية استطاع « حابرييل بود » أن يجعل الجماعة تحس بالتصور الشمولي وبذلك فإن الأفراد الذين ظلوا منغمسين في الواقع وشاعرين في نفس الوقت بحاجات معينة استطاعوا ان يفهموا سبب ذلك، وبهذا الأسلوب امكنهم أن يذهبوا أبعد من مجرد الاحساس الواقعي الى استثارة الاحساس الكامن .

وهكذا فبمجرد ان يحضر البرنامج وتدرس وجوهه النظرية بواسطة الباحثين يبدأ الباحثون مرحلتهم التالية وهي العودة الى المنطقة لبدأوا الحوار فيما بينهم ومن ثم يقومون بتسجيل المادة التي توصلوا اليها في المرحلة السابقة في شرائط من أجل الرجوع اليها فيما بعد . وبالإضافة الى عمل الباحث كمنسق للبرنامج فلا بد أن يصحبه عالم نفسي وآخر اجتماعي من أجل تسجيل انطباعاته المهمة وغير المهمة ، وفي خلال عملية التحليل لا يقتصر عمل المنسق على الاستماع للأفراد بل عليه أن يستثيرهم من خلال طرحه للمشكلات المتعلقة بالواقع والمتعلقة باجاباتهم أيضاً والدوافع المثيرة للعواطف . وفي هذه الطريقة يبدأ المشتركون في الاعلان عن كثير من الآراء المتعلقة بأنفسهم والعالم والآخرين، تلك التي لا يعلنونها في غير هذه المناسبة ، ففي احدى الحملات البحثية التي أجريت في « سانتياجو » قام جماعة من العاملين في احدى المزارع بمناقشة منظر رجل سكران يمشي في الشارع الى جانب ثلاثة آخرين يتجاذبون أطراف الحديث في الركن ، فعلق أفراد الفريق بقولهم ان المنتج الوحيد والذي يؤدي فائدة لبلده هو هذا السكران الذي يعود الى منزله في آخر اليوم مثقلاً بالقلق تجاه أسرته شاعراً بعدم قدرته على تلبية مطالبها بسبب ضعف دخله انه عامل ممتاز ولكنه يسكر مثلاً .

لقد كان هدف الباحث دراسة اثر الخمر في هؤلاء ، وبكل تأكيد فانه لم يكن باستطاعته الوصول الى التصور السابق لو اقتصر على توجيه الاسئلة التي أعدها

بنفسه ، فربما حاولوا في مثل هذه الحال خداعه وأنكروا عليه أنهم يشربون الخمر ولكن من خلال تعليقهم على ما شاهدوه من تجسيم لموقف واقعي فقد استطاعوا ان يتبينوا الموقف وأن يتبينوا انفسهم من خلاله وذلك ما جعلهم يقولون ما يحسون به فعلاً .

وكما يبدو فان هنالك وجهين لهذا الاعتراف ، فمن جانب تحدث الفلاحون عن العلاقة بين كونهم مستغلين يكسبون دخلاً قليلاً وبين حقيقة شربهم للخمر فراراً من الواقع أو محاولة منهم لتجاوز القلق الذي يحسون به ، فهذه في نظرهم محاولة لايجاد حل عن طريق تحطيم الذات ، ومن جانب آخر فقد قام الفلاحون بمحاولة لتقويم شارب الخمر في درجة أعلى ذلك أنه الوحيد في نظرهم الذي يخدم وطنه من خلال عمله بينما الآخرون يتكلمون . وهكذا بعد أن عرفوا السكير بدأوا في تمييز انفسهم من خلاله كرجال يعملون ويسكرون ولا يؤثر ذلك على امتيازهم .

ومن حقيك أن تقارن بين النجاح الذي حققته هذه الطريقة والفشل الذي عانى به المعلمون الذين يتخذون من الموضوع خطبة اخلاقية ضد السكر متخذين نماذج للفضيلة لا يعتبرها هؤلاء الرجال كذلك ، ويتبين من ذلك أن أفضل أسلوب يتبع هو الأسلوب الذي يستثير وعي الناس بأوضاعهم ويولد عندهم الاحساس بتغييرها .

ولقد لاحظت في تجربة أخرى خلال نقاشي مع الفلاحين اصرارهم على المطالبة بزيادة الأجر وتكوين اتحاد لحماية مطالبهم ، فقد نوقشت ثلاثة موضوعات خلال تلك الجلسة ولكن نظرهم لم تتغير، وعليك الآن ان تتخيل معلماً قد حضر برنامجاً تعليمياً هؤلاء الناس موضوعه « الماء في البئر » فهل ستكون هنالك استجابة له ؟

هذا نموذج من الأخطاء التي يقع فيها المعلمون والسياسيون ، فهاتان الطائفتان لا تدركان في كثير من الأحيان ان التعليم الحوارى يبدأ حين يكون هنالك

بحث عن الموضوع الذي يهتم المتعلمين . وهكذا فبمجرد ان تحلل المعلومات بواسطة الفريق تبدأ المرحلة الرابعة حيث يبدأ الباحث في دراسة المحتويات المجتمعة لديه مستمعاً للشرائط التي سجلت وناظراً في المذكرات التي دونها الباحثان المختصان في العلوم الاجتماعية والنفسانية لتبدأ بعد ذلك برحمة الموضوعات بصورة مباشرة أو ضمنية على أن تصنف الموضوعات بحسب العلوم التي تنتمي إليها ، ولا يعني التصنيف توسيع البرامج بحيث يصبح كل موضوع منعزلاً عن بقية الموضوعات ، اذ المطلوب هو أن يعرف كل موضوع بالعلم الذي ينتمي اليه فيما تظل علاقته قائمة ببقية الموضوعات الأخرى ، وعلى سبيل المثال فان الموضوع المختص بالتنمية يتبع قطاع الاقتصاد ولا يعني ذلك ان يقتصر عليه اذ من الممكن النظر في هذا الموضوع أيضاً من خلال علوم الاجتماع والانثربولوجيا وعلم النفس الاجتماعي والعلوم السياسية والتربية وهلم جرا . .

وبهذا الأسلوب ينتقي النظر الى الموضوعات بشيء من التحجر اذ من المؤسف بعد تحديد الموضوعات من خلال علاقتها بالظواهر الاخرى في حياة الناس أن نضحى بكل هذا الثراء من أجل التقيد بالتخصص الدقيق .

وهكذا فبمجرد أن تتحدد الموضوعات يبدأ كل متخصص في تقديم تفاصيل موضوعه التي تركز على محور تتفرع عنه وحدات تعطي في تسلسلها تصوراً متكاملاً للموضوع ، وبمجرد أن يناقش كل موضوع على حدة يبدأ الآخرون في تقديم الاقتراحات التي ستضمن في المشروع المتكامل في شكل مقالات مختصرة تكتب عن البرنامج بأسره ، فهذه المقالات ستساعد المدرسين والطلبة الذين سيعملون في الدوائر الثقافية فيما بعد . وخلال عملية تفصيل الموضوعات المجدية هذه يبدأ الباحثون في ادراك ضرورة ادخال بعض الموضوعات التي لم يقترحها الناس خلال عملية البحث ، ذلك أن ادخال مثل هذه الموضوعات قد أثبت جدواه في مثل هذه الظروف ، واذا كان هذا هو شأن الباحثين فمن حق الطلبة والاساتذة أيضاً اقتراح الموضوعات التي تظهر خلال عملية البحث وانني اسمي مثل هذه الاقتراحات بالموضوعات المتحركة وذلك نظراً لطبيعتها المتغيرة فهي اما أن تساعد على الربط بين

موضوعين في الوحدة البراجمية واما أن تساعد على توضيح العلاقة بين البرنامج العام ورؤية الناس للعالم ، وقد يكتب واحد من هذه الموضوعات المقترحة كمقدمة للوحدة البراجمية . ويبدو من بين تلك الموضوعات المتحركة المفهوم الانثروبولوجي للثقافة وهو مفهوم يوضح دور الرجال في العالم ومع العالم كقوى مطورة لا ككائنات متأقلمة ، وبمجرد الانتهاء من عملية تفصيل الموضوعات تبدأ مرحلة تحليلها لاختيار الاسلوب الأمثل لعرضها وتقديمها على أن يكون التحليل متبعاً الطريقة البسيطة أو المركبة ، وفيما نعلم فإن الطريقة البسيطة تقوم على استخدام الصور والمشافهة والوسائل السمعية في حين أن الطريقة المركبة تستخدم وسائل مختلفة اما استخدام الصور فيعتمد على المادة المحللة ، وما اذا كان المتعلمون مهين أم لا .

وهكذا فبعد أن تحلل الموضوعات يبدأ في تحضير الوسائل المكونة من الصور والأفلام والملصقات والكتب وما الى ذلك، وقد يتخذ الفريق بعض الموضوعات للنظر فيها من خلال الاختصاصيين الخارجيين ، فاذا كان الموضوع عن التنمية كان بإمكان الفريق أن يتصل باقتصاديين ينتميان الى مدرستين مختلفتين يدعوهما للتحدث في هذا الموضوع بلغة يفهمها الدارسون ، فاذا قبل المتحدثان الحديث يسجل هما لقاء مدته ربع الساعة على أن يتم تصوير كل متحدث منهما خلال استجوابه وعندما يقدم الشريط للدائرة الثقافية يوضح لهم ما انتجه كل متحدث وعمله السابق ثم عمله الحالي ، وخلال ذلك تظهر صورته على الشاشة ، واذا كان المتحدث استاذاً جامعياً يمكن أن يسأل الدارسون عما يعرفونه عن الجامعات وما يتوقعونه منها وبما أن الفريق قد أخطر بإجراء مناقشة بعد سماع المقابلتين فإن من واجب الباحثين اخطار المتحدثين بوجهة نظر الدارسين ، وبهذه الطريقة يمكن ربط الاختصاصيين بالناس كما يمكن اعطاء الناس فرصة السماع ونقد الاختصاصيين ، وقد تقدم بعض الموضوعات عن طريق الدراما التي تخضع للمناقشة بعد ذلك ، ومن الوسائل الأخرى التي تتبع المناقشة حول المجالات والجرائد وبعض فصول الكتب وكما هو الشأن مع الاختصاصيين تقدم نبذة عن الكاتب في البداية ثم يقدم بعد ذلك موضوع كتابته وكما هو الحال فلا غنى عن مناقشة افتتاحيات الجرائد عقب كل مناسبة مركزين على

الاسباب التي تجعل الجرائد تتخذ مواقف مختلفة من المشكلة الواحدة ، فهذا الأسلوب يساعد على تقوية ملكة النقد كما يساعد على عدم التعامل مع الجرائد بسلبية وتأكيد التعامل معها من منطلق أناس يبحثون عن الحرية .

وهكذا فبعد أن أعدت كل المواد المطلوبة وقدم لها يستعد فريق المعلمين لتقديم الموضوعات للناس وهي في الحقيقة موضوعاتهم هم غير أنها تقدم لهم بطريقة منظمة وبجسمة ، وبهذا فإن الموضوعات التي أتت من الناس تعود اليهم ليس بصفتها مادة يراد تخزينها في عقولهم بل كمشكلات يتوجب عليهم حلها ، وهنا يبدأ المعلم الأساسي في توضيح الأهداف العامة لبرنامج الحملة وسوف لن يجد المشاركون في هذا البرنامج شيئاً غريباً لأنه قد نبع منهم ، كما يوضح المعلم ضرورة الموضوعات المتحركة وأهميتها ، فإذا لم يتمكن الباحثون من اجراء البحث الذي شرحناه بسبب ضعف الامكانيات المادية فيمكنهم بأقل قدر من الموضوعات تغيير نظم معينة لبحثها . وبإمكانهم أن يبدأوا بالموضوعات التقديمية والتي توحى مزيداً من البحث الموضوعي ، ومن أهم الموضوعات التي لا غنى عنها المفهوم الانثربولوجي للثقافة فسواء كان الرجال فلاحين أو عمالاً في مرحلة تعلم القراءة أو تجاوزوا هذه المرحلة فإن بداية البحث عن المعرفة تبدأ بمناقشة المفهوم لانهم بمناقشتهم لمفهوم الثقافة يعكسون مدى وعيهم بالواقع الذي يتضمن كثيراً من الموضوعات ، فمناقشة هذا الموضوع تفتح المجال لمناقشة غيره من الموضوعات حيث يبدأ الانسان في النظر اليها بعمق وذلك يفتح الباب لمناقشة مزيد من الموضوعات .

وهكذا فمن خلال الخبرة التي كونتها أستطيع أن اؤكد ان مناقشة مفهوم الثقافة تمكن من القاء مزيد من الضوء على موضوعات البرنامج التعليمي ، وبالإضافة الى ذلك فإنه بعد حوار يستمر لعدة أيام مع المشتركين في الحلقة الثقافية يمكن للمعلمين أن يسألوا المشاركين مباشرة عما يريدون مناقشته الى جانب هذه الموضوعات ، وبمجرد ان يجيب المشاركون تسجل اجابة كل فرد وتعرض كمشكلة أمام المشاركين وقد يقول أحد المشاركين على سبيل المثال : أريد أن نتحدث عن القومية وبعد أن يسجل المعلم الموضوع يقول وما المقصود بالقومية ؟ ولماذا يهمنا أن نناقش موضوعها ؟

لقد بدا لي من خلال تجربتي أنه عندما يطرح الموضوع للجماعة كمشكلة تبدأ موضوعات أخرى في الظهور ، فإذا كانت هنالك منطقة تجتمع فيها ثلاثون حلقة في ليلة واحدة فسيجد الفريق المركزي مادة غنية لدراستها .

وعلى وجه العموم فإن المسألة المهمة في التعليم الذي يستهدف الحرية هو أن يشعر الرجال فيه كأساتذتهم أنهم يسمعون صوت أنفسهم وصوت زملائهم في مسائل تختص بالعالم الذي يعيشون فيه ، فهذا النوع من التعليم ينطلق من فناعة فحواها أن البرنامج التعليمي لا يكون تعليمياً ما لم يتخذ من الحوار مع الناس أساساً له فهو يقدم أسلوب تعليم المتهورين بالطريقة التي يسهم فيها المتهورون أنفسهم وبصورة ايجابية في العملية التعليمية .

الفصل الرابع

نظرية القهر ونظرية الحوار الثوري

سيكون حديثنا في هذا الفصل الذي نحلل فيه نظريات الفاعلية الثقافية المبنية على فكرتي الحوار واللاحوار حافلاً بالإشارات الى ما تعرضنا اليه في فصولنا السابقة وذلك رغبة منا في التوسع والتأكيد ، وسوف أبدأ بحقيقة أولية وهي أن الرجال بصفتهم كائنات تخوض نضالاً يختلفون عن فصائل الحيوان الأخرى التي هي كائنات محكوم عليها بالحركة ذات الطبيعة المجردة المحدودة فالحيوانات لا تملك أهدافاً تسير عليها ، أما الناس فانهم يختلفون بالضرورة لأنهم يستطيعون تحديد أهدافهم الخاصة التي يغيرون بها البيئة التي يعيشون فيها . وما ذكرناه يلقي ضوءاً على الأسباب التي تجعل الحيوانات تعيش في البيئات المناسبة لها دون احتياج الى التحاور فيما بينها ، وذلك عكس طبيعة الرجال الذين لا يستطيعون العيش إلا في بيئة قوامها الوعي والحركة الفاعلة التي تحدث التغيير المتصل وتحتاج دوماً الى نوع من التنظير يحكم مسيرتها ذلك أن حركة الرجال في جوهرها ضرب من النظرية والتطبيق أو هي رؤية وحركة ، وكما أسلفنا في الفصل الثاني فإن هذه العلاقة بين الحركة والفعل لا يمكن أن تقلص لتقتصر على أي من هذين الطرفين .

يقول لينين « بدون نظرية ثورية لا يمكن أن يتولد عمل ثوري » ويعني هذا أن النضال الثوري ليس في مقدوره أن يقتصر على الناحية النظرية وحدها مغفلاً الجانب العملي أو العكس ، ذلك أن النضال الثوري زواج شرعي تقوم مبادئه على دعائمي العمل والتنظير بحيث يتخذ من الواقع المراد تغييره هدفاً له . ومن الخطأ أن يعتبر القادة أنفسهم طبقة من المفكرين فيما يعتبرون المفهورين شردمة من العاملين تمثل لأوامرهم ، فالعمل الصادق من أجل ازالة ظروف القهر يستوجب تصوراً نظرياً يوضح منهج التغيير، ومثل هذا العمل لا يمكن أن يخطيء دور الرجال في هذه العملية .

ومن البدهي ان نقول : ليس من حق القادة في عملية التغيير تحويل
المفهورين الى مجرد كائنات أو حرمانهم من حقهم الطبيعي في ادراك دورهم المناط بهم
يتخذون من الوهم الخادع عوضاً لهم عن ذلك ، فمثل هذا الأسلوب . هو في
الواقع تكريس للقهر والاستغلال اللذين يمارسهما في هذه المرة من يزعمون أنهم
أعداء القهر .

وتبعاً لذلك ، فإن دور المفهورين يقوم على تحمل المسؤولية الثورية والاطلاع
بأعباء التنسيق خلال عملية النضال وقد يقومون في بعض الأحيان بدور الموجهين ،
أما أولئك الذين يحددون دور المفهورين الحقيقي في النضال فانهم يهزمون الغايات
التي يسعون الى تحقيقها. ذلك أن القادة الذين يفرضون كلمتهم على الجماهير انما هم
في الحقيقة يزورون الثورة بايجادهم نوعاً من التناقض بين الأهداف وأساليب
التحقيق ، وعلى عكس ذلك فإن القادة المخلصين - حقاً - لقضية الحرية ، فان
أقوالهم وأفعالهم تتحد في جميع الأحوال والظروف مع أقوال وأفعال غيرهم من
الرجال ، فالعمل الثوري الحقيقي لا بد له في النهاية أن يقف معارضاً لطغيان
الصفوة المتحكمة لأن هذه الصفوة بطبيعتها تكره العلاقة الجدلية في الحوار ، وإذا
فليس من الثورية في شيء تسفيه أحلام الرجال أو جعل مقياس الثورية هو مجرد اتباع
القادة في القول والفعل لأن الثورية الحققة انما هي ضرب من المشاركة لا يمكن أن
يتحول الرجال فيه الى ممتلكات خاصة تأتمر بامرة القادة ، فالاستقلال القائم على
الشعارات وغسل الأدمغة والمليشيات والتوجيه اللاإرادي لا يمكن أن يجسد الثورة
الحقيقية ، فهذه المظاهر جميعاً من مقومات السيطرة وليست من مقومات التحرير .
فالذي يرغب في السيطرة ليس أمامه من خيار إلا أن ينكر على الرجال حقهم الطبيعي
في العمل والكلام وحرية الفكر لأن الدخول معهم في علاقة حوارية لا يعني سوى
أحد أمرين اما انه على استعداد للتنازل عن شيء من سيطرته من أجل مشاركة الناس
أهدافهم واما أنه قد فقد سيطرته نتيجة حسابات خاطئة ، وباختصار فإن القادة
الثوريين الذين لا يرغبون في التنازل مع الناس اما أنهم قد اكتسبوا صفات
القاهرين فلم يعودوا بالتالي ثوريين حقيقيين واما أنهم غدوا مضللين في تصورهم
لطبيعة دورهم الحقيقي وأصبحوا بذلك أسرى لرؤيتهم المذهبية الضيقة ويعني ذلك

أيضاً أنهم لم يعودوا ثوريين حقيقيين، وفي كلا الحالين تتأكد الحقيقة الباقية وهي أن الثوريين قد يصلون إلى السلطة ولكن وصولهم إليها لا يعني خاتمة المطاف ، فالذي يصل إلى السلطة ويفرض أن يتحاور مع الناس يغدو في شك من قدرته على تحقيق أهدافه .

ولسنا في حاجة إلى تأكيد دور المقهورين الهام في المشاركة في العمل الثوري بالوعي والقدرة على النقد ، فهذا هو سبيلهم الطبيعي كمحدثين للتغيير الثوري . أما إذا جردوا أنفسهم أو جردوا من هذا الدور تحت وهم وضعهم القديم المستبدن للقهر والقاهرين فإنهم سيعيشون وهماء جديداً وهو أنهم قد تمكنوا من السلطة في الوقت الذي هي بعيدة عنهم كل البعد ، وقد تفسح هذه الازدواجية المجال أمام المذهبية التي تؤدي بالضرورة إلى البيروقراطية التي تقضي في النهاية على الثورة . ويترتب على ذلك أنه ما لم يتدارك المقهورون هذه الازدواجية خلال عملهم الثوري فإن مشاركتهم ستكون ضرباً من الانتقام أكثر منها بحثاً عن الحرية والثورة، وسيكون عملهم موجهاً نحو السيطرة أكثر منه موجهاً نحو التحرير .

وإذا كان من الطبيعي أن يواجه القادة الصادقون بعض المصاعب خلال عملهم الثوري فإن هذه المصاعب ستكون مضاعفة أمام أولئك القادة الذين يطمحون في أن يقوموا بالدور الثوري نيابة عن الجماهير ذلك أن القيام بمثل هذا العمل لا معنى له سوى أن القادة يريدون لثورتهم أن تنجح دون مشاركة الجماهير فيها ويستوجب هذا الاتجاه بالضرورة تجريد الجماهير وانخضاعها لنفس ظروف القهر التي حاولت أن تتخلص منها فيما سبق .

ويبدو هنا أن الحوار مع الجماهير أمر ضروري لكل ثورة حقيقية وذلك في الواقع ما يميز الثورة عن الانقلاب ، فمن الطبيعي ألا يتوقع الإنسان مثل هذه العلاقة الحوارية مع الانقلابيين ، فالانقلابيون لا هم لهم إلا أن يكتسبوا الشرعية بكل أساليب الخداع الممكنة ، أما الثوريون فلا بد لهم عاجلاً أو آجلاً أن يقيموا نوعاً من الحوار الشجاع مع الناس، ذلك أن شرعية وجودهم إنما يستمدونها من ذلك الحوار ، فهم لا يخافون آراء الناس أو مشاركتهم الفعالة في السلطة، وهم بالتالي لا

يجدون حرجاً في التحدث اليهم عن انجازاتهم واخفاقاتهم ولا يجدون حرجاً في التحدث اليهم عن حساباتهم الخاطئة والمصاعب التي يواجهونها ، وبقدر ما تكون السرعة في بدء الحوار بقدر ما تكتسب الثورة أصالتها وشرعيتها ، وإذا كان الحوار ضرورياً من أجل الثورة فإنه بنفس القدر ضروري من أجل الرجال أنفسهم لأنه بواسطة هذا النوع من الاتصال يتمكنون من تحقيق وجودهم الانساني، ذلك أن الانسان بطبيعته كائن متحاور، أما الذين يعملون لتقويض ظاهرة الحوار هذه فلا يمكن أن يكونوا من الثوريين لأن ظاهرة التقويض من سمة مجتمع القاهرين ، واستطيع الآن أنؤكد أن العمل الثوري لا يمكن أن يتم مجزأ بحيث تخصصر إحدى مراحله للوعى والأخرى للعمل ، فالعمل والوعى في إطار النضال الثوري إنما يتحققان في نفس المرحلة، ولكن قد يؤكد التحليل الموضوعي أن بعض أنواع العمل يستحيل تنفيذها في الوقت الراهن. والذين يرون هذه الرؤية لا يمكن أن يتهموا بالتقاعس أو عدم الفاعلية لأن الرؤية في حد ذاتها هي نوع من العمل .

ولقد أوضحت فيما سبق أن محاولة الاستاذ والطالب فهم موضوع المعرفة لا تنتهي بهما عند ادراك الموضوع وحسب، ذلك أن الممارسة في حد ذاتها تنمي القدرة على الفهم وهذا هو الحال بالنسبة للفعل الثوري حيث يشترك المفهرون والقادة في عمل ثوري واحد تنوسطهم الوقائع الحقيقية وبذلك لا يستطيع أحد أن يتحدث عن القوائم أو القائمين بالعمل دون ربط القادة والمفكرين في علاقة جدلية حوارية ، وإذا كان هذا القول يوحي بتجزئة القائمين بأمر الثورة فإن المقصود منه في الحقيقة هو وحدتهم لأنه بدون هذه الوحدة تتأكد التجزئة الحقيقية حيث القادة في صعيد والجماهير في صعيد آخر يكرسون حقيقة الفهر الذي يطمحون الى ازالته .

ان محاولة عرقلة العمل الجماعي والحوار مع الجماهير تحت دعوى التنظيم أو تكريس هيبة الثورة هو في حقيقته خوف من الحرية أو هو في حقيقته عدم ثقة بالجماهير ولكن تبقى الحقيقة الأزلية وهي أنه ما لم يثق القادة في الجماهير فلن تتمكن الجماهير من تحقيق حريتها . فالثورة التي تقوم على عدم الثقة بالجماهير لا تحقق أهداف الجماهير وإنما تحقق أهداف القادة وحدهم ويتأكد من ذلك أن الثورة لا يقوم

بها القادة من أجل الجماهير ولا تقوم بها الجماهير من أجل القادة وإنما يقوم بها الطرفان في وحدة متلاحمة ولا يمكن لهذه الوحدة أن تتحقق إلا حين يشملها القادة بتواضعهم وحبيهم وشجاعتهم في مواجهة الجماهير ، ومن الضروري أن نعترف بأنه ليس كل الرجال يمتلكون مثل هذه الشجاعة، والذين لا يمتلكون الشجاعة ليس في وسعهم معاملة الآخرين إلا كأشياء وهم بدّل أن يبعثوا في الأرض الحياة فانهم يقتلون الحياة، وبدل أن يقبلوا نحوها فإنهم يدبرون عنها، وهذا السلوك في صميمه هو من مقومات القهر. وقد يظن البعض أن الدعوة إلى الحوار مثالية ساذجة وتؤكّد هؤلاء أن ليس ثمة شيء حقيقي كأن يتعامل الرجال مع الرجال وأن يشتركوا جميعاً في التعامل مع العالم لأنه بدون هذا الأسلوب فإن العلاقة الوحيدة التي ستكون ماثلة هي علاقة القاهرين والمقهورين .

إن الثورة الحقيقية هي محاولة لتغيير العالم الذي امتهنت فيه كرامة الإنسان ولن يقوم بهذه الثورة أولئك المستفيدون من هذا الوضع وإنما يقوم بها المقهورون مع قيادتهم ولا تستطيع هذه القيادة أن تقوم بدورها المطلوب إلا إذا كرست علاقاتها مع الجماهير على الوجه الذي ذكرناه، على أن كثيرين من الذين ينظرون إلى العالم نظرة ميكانيكية لا يستطيعون أن يروا مواقف الرجال تتأثر إلى حد كبير بمدى احساسهم بالعالم الذي يعيشون فيه . ففي نظر هؤلاء من الممكن تغيير العالم بالأساليب الميكانيكية دون اهتمام بأحاسيس الناس وأثرها في العمل الثوري . ولكن الحقيقة التي نؤكد دائماً هي أنه ليس من حقيقة تاريخية إلا وهي إنسانية في ذات الوقت، فليس هنالك تاريخ بدون رجال وليس هنالك تاريخ من أجل الرجال ، فالتاريخ يصنعه الرجال وهو كذلك يصنع الرجال، وعندما يستلب الرجال ويجردون من حقهم في المشاركة التاريخية يصبحون بالضرورة واقعين تحت السيطرة والقهر ولا يمكن لهم تجاوز هذا الواقع إلا حينما يشاركون في العمل الثوري بوعي ولا يخضعون له كمجرد أشياء . وليس من شك في أنه من المثالية أن نقول إن مجرد تبصر الرجال بواقعهم المقهور واكتشافهم لحقيقة وضعهم كأشياء كفيل بتغيير واقعهم ، فليس الأمر على هذا النحو من البساطة وإنما هو كما قال أحد مساعدي « الرجال في لحظة الاكتشاف يمارسون مخاضاً حقيقياً هو الذي سيقرّبهم في النهاية لتأكيد وضعهم الجديد » .

ومن ناحية أخرى فمن الخطأ أن نعتبر مجرد الحركة هي السبيل الى الثورة لأن الحركة لا بد لها أن تقتزن بالقدرة على النقد الواعي الذي يؤدي الى مزيد من تنظيم الفكر بحيث ينتقل الانسان من المعرفة الساذجة الى درجة أعلى من الفكر واذا ظل قادة الثورة ينكرون على الناس ويؤكدون قدراتهم الخاصة فانهم في الحقيقة سيدمرون هذه القدرات لأنهم لا يستطيعون أن يفكروا دون مشاركة الجماهير فهم في هذا التفكير .

حقاً نحن نعلم أن الصفوة المسيطرة تفكر بدون أن تشاركها الجماهير وهي لا تسمح لنفسها بالفشل في ممارسة ترف التفكير لأن التفكير يقودها الى معرفة أحسن السبل لتأكيد سيطرتها ، وهكذا فإن أي حوار أو اتصال بين هذه الصفوة والجماهير يتحول الى مجرد بيانات ايداعية لا تستهدف سوى تدجين المقيهورين .

ومن حقنا أن نسأل لماذا لا تشعر الصفوة المتسلطة بالضعف وهي تفتقر الى مشاركة الناس لها في التفكير ؟ والاجابة هي أن الناس يمتلكون المقابل المعاكس لهذه الصفوة فاذا امتلك الناس قدرة التفكير انتفى التناقض القائم بين الصفوة والجماهير وبالتالي يتوجب على الصفوة أن تفقد دورها في التسلط ، لذلك فمن وجهة نظر المتسلطين لا بد أن يكون هنالك تفكير يحكم عدم التفكير الذي تمارسه الجماهير .

يقول « نيبور » :

« لقد أثار المستر جيدي الذي أصبح رئيساً للجمعية الملكية بعض الاعتراضات التي يمكن أن تلاحظ في كل البلاد فعلى الرغم من وجهة النظرية ، فإن المشروع التعليمي اذا ما أعطى للطبقات العاملة الفقيرة فقد يكون متعارضاً مع أخلاقياتهم وسعادتهم لأنه يعلمهم أن يكرهوا أنفسهم بدل أن يعلمهم كيف يصبحون زراعا وعمالاً ممتازين ، كذلك فانه بدل أن يعلمهم الخضوع فانه يعلمهم الجحور وكما هو الحال في الدول الصناعية فانه يعلمهم قراءة منشورات التمرد والكتب الفارغة والمطبوعات التي تعارض المسيحية . انه يعلمهم اساءة الأدب مع رؤسائهم وسيجد المشرعون أنفسهم بعد بضع سنوات بحاجة الى استخدام اليد القوية ضدهم .

فما أراده المستر جيدي هو ما أراده الصفوة دون أن تعلن عن رأيها في معارضة

التعليم بصراحة فقد أراد جيدي أن يظل الناس غير قادرين على التفكير ونظراً لأنه وأمثاله في جميع الحقب بصفته من القاهرين الذين لا يمكنهم أن يفكروا مع الجماهير فقد أرادوا لهذه الجماهير ألا تتعلم التفكير لنفسها . ولكن وضع المستر جيدي لا يماثل وضع القادة الثوريين ، فالقادة الثوريون ان لم يفكروا مع الناس فقدوا حيويتهم الثورية ذلك أن الناس محل اهتمامهم الاعظم وليسوا في نظرهم مجرد أشياء يفكرون فيها ، وعلى الرغم من أن القادة الثوريين أيضاً يفكرون في الناس من أجل فهمهم بطريقة أفضل ، فان هذا التفكير يختلف عن تفكير الصفوة لأن محوره يتركز في تحرير الناس وليس احكام السيطرة عليهم ويمكننا أن نقول على وجه الاجمال ان تفكير الصفوة هو تفكير السادة وأما تفكير الثوريين فهو تفكير الرفقاء . ومن البدهة أن نقول ان السيطرة تستوجب قطبين أحدهما يسيطر والآخر يُستغل ، وبين القطبين تناقض لا يلتئم وليس من سبيل الى تصحيح هذا الواقع الا بالثورة التي تستهدف التحرير والثورة تستوجب ظهور طبقة من القادة تصنعهم المحاولة والتجربة فاذا لم يكن هؤلاء القادة منحازين الى المجهورين فان ثورتهم لن تكون ثورة حقيقية ، ولا يتم انحياز هؤلاء القادة الى الجماهير لمجرد التفكير عنهم كما يفعل المسيطرون وانما يتم بالتفكير معهم لأنهم ان لم يفعلوا ذلك لن يكونوا قادة ثوريين حقاً .

أما خلال عملية القهر فان الصفوة المتسلطة تقنات من أكباد هؤلاء الأحياء الأموات ذلك أنها تحس وجودها في العلاقة الفوقانية معهم وليس هذا شأن الثوريين الذين قدرهم أن يموتوا من أجل أن يبعثوا من جديد في حركة المجهورين .

ونستطيع أن نقول بثقة ان عملية القهر تستوجب طرفين أحدهما قاهر والآخر مقهور ولكننا لا نستطيع ان نقول انه خلال عملية الثورة فان هنالك شخصاً يقوم بتحرير شخص آخر أو ان هنالك شخصاً يكتفي بتحرير نفسه فقط لأن الحقيقة هي أن كل الرجال يتبادلون التحرير في عمل جماعي ولا نقصد بذلك أن نقلل من قيمة القيادة الثورية بل على العكس من ذلك فنحن نؤكد أهمية هذه القيادة فيما من شيء يفضل حياة الانسان مع المجهورين يشاركهم نضالهم من أجل الحرية ، فمثل هذه المشاركة جديرة بأن تمنح القادة شعوراً فائقاً بالسعادة ، ونستطيع أن نقول على وجه

الاجمال ان ما يستطيع أن يفعله القادة الثوريون بحكم طبيعتهم هو ما تفشل الصفوة المتسلطة في صنعه بحكم تكوينها ، فالحقيقة الدائمة هي أن أي عمل تقوم به الصفوة المتسلطة تجاه المقهورين انما هو في جوهره كرم زائف ، وذلك ما لا يقدر القادة الثوريون على ممارسته بحكم تكوينهم . وهكذا فبينما تزدهر الصفوة بسحقها للمقهورين تحت الأقدام فان القادة الثوريين يزدهرون فقط عندما يعملون مع الناس . واستناداً على هذا الفهم فلا يمكن أن يكون أسلوب القاهرين انسانياً ، وعلى العكس من ذلك فان منهج الثوريين يتسم بانسانيته الدائمة ، وفي كلا الحالتين يمكن الاستفادة من وظائف العلم . فبينما يتخذ القاهرون من العلم والتكنولوجيا وسائل يحولون بها الناس الى مجرد أشياء فان الثوريين يتخذون من العلم سلاحاً لعكس هذا الغرض لأنهم يستهدفون تحويل الرجال الى بشر .

وهكذا فلا يمكن للثورة العلمية ذات الطبيعة الانسانية أن تحول الناس الى مجرد أشياء خاضعة للتحليل السلوكي لأن النظر الى الانسان من هذه الزاوية يعني وقوع العلم في أحد فخاخ ايدلوجية القهر والتي تكرس الجهل العام ، وتعني مثل هذه الخرافة أن هنالك فرداً ما يحكم على الآخرين بالجهل بينما هو وطبقته وحدهم الذين يعلمون أو الذين ولدوا ليعلموا ، إنه لا يرى الحقيقة إلا حين تقول طبقته كلمتها ولذلك فهو يحاول أن يفرض هذه الكلمة على الآخرين . الذين هم المقهورون المجردون من قول كلمتهم .

ان أولئك السارقين لكلمات الآخرين يتمون في داخل أنفسهم شعوراً عميقاً بالشك فيما يقوله الآخرون ، فالآخرون في نظر هؤلاء غير قادرين بل عاجزين عن أن تكون لهم كلمة حقيقية لذلك فهم ينجحون الى قول كلمتهم على الدوام دون تكليف أنفسهم السماع الى أولئك المستلبين ، وهكذا يتعودون على أن يكونوا في موضع القوة حيث يقودون ويأمرون ولا تحلوهم الحياة الا حين يكونون أمريين، فهل يمكن لامثال هؤلاء أن يتحاوروا مع الآخرين ؟

وعلى عكس ذلك فإن قادة الثورة العلمية ذات الطبيعة الانسانية لا يؤمنون بخرافة جهل الجماهير ولا يميلون الى قبولها فهم لا يصدقون أنهم يحتكرون المعرفة

وحدهم، ذلك أن مجرد التفكير في هذا الاتجاه يعني عدم الثقة بال جماهير . وعلى الرغم من أن هؤلاء القادة يدركون بوعيهم الثوري أنهم يملكون رؤية ثورية تفوق تلك التي عند الجماهير ، فانهم يحجمون عن فرض رؤيتهم تلك على الناس بل يحجمون عن ملء عقولهم بالشعارات ويؤثرون على ذلك كله أسلوب التحوار مع الناس فيخصصون بذلك معرفة الناس ويجعلونها تزدهر من خلال معرفتهم الناقدة ليتحول ذلك كله الى وعي بالواقع المعاش ولعله من السذاجة أن نفترض أن الصفوة القاهرة قادرة على القيام بمثل هذا النوع من الحوار وهي التي تنطلق في حكمها على الناس من مفهوم « الجهل العام » . ذلك مستحيل بالنسبة لهذه الطبقة ، أما الثوريون فانهم لا يستطيعون أن يتناقضوا مع مواقفهم الثورية بقبول خرافة الجهل العام ، كذلك فمهمتهم لا تقتصر على طرح هذه الخرافة كمشكلة بل يتوجب عليهم اقرانها بجميع الخرافات التي تستخدمها الصفوة المتحكمة كي تمارس دورها القهري من أجل إيجاد الحلول لها ، واذا ما أثر القادة الثوريون اتخاذ أسلوب القاهرين فستعكس اثارهم على الناس باحدى طريقتين ، فلما أن تقوم الشعارات الجديدة بتدجين الناس كما يحدث في بعض الظروف التاريخية واما أن تشعرهم بالخوف حين تهز القهر المستبطن في أعماقهم ، وفي كلا الحالين فلن يكون سلوك القادة ثورياً ، اذ في الحالة الأولى تصبح الثورة مجرد وهم أو سراب وفي الحالة الثانية فانها ستصبح أمراً مستحيلاً ونحن لا نشك في أن هنالك بعض الثوريين من أصحاب النوايا الحسنة يعتقدون أن طريق الحوار طويل وأفضل منه طريق البيانات ويذهب هؤلاء الى أبعد من ذلك حين يقولون ان التعليم التحريري لا يمكن أن يتم الا حين تتولى القيادة الثورية السلطة ، فالسلطة عند هؤلاء يجب أن تسبق التعليم .

ان امثال هؤلاء الرجال يؤمنون بالتحوار مع الناس ولكنهم لا يؤمنون أن مثل هذا التحوار يمكن أن يتم قبل أن يسيطروا على السلطة وكأنهم حين ينكرون ضرورة الحوار التعليمي قبل استلام السلطة ينكرون في ذات الوقت الصفة التعليمية للثورة - ذاتها - كأنجاز ثقافي يعد الناس لمرحلة الثورة الثقافية وبالتالي فان هؤلاء الرجال يخلطون بين هذا النوع من التثقيف وبين التعليم الذي تمارسه السلطة الثورية بعد استلامها مقاليد الأمور .

لقد أكدت مراراً أنه من السذاجة أن نشوق من الصفوة المتسلطة أن تقوم بمهمة تعليمية تؤدي إلى تحرير الإنسان وعلى عكس ذلك فعلينا دائماً أن ندرك أن الثورة تتميز دائماً بطبيعتها التعليمية وما لحظة استلام السلطة إلا مرحلة من مراحل العمل الثوري ، وعلى الرغم من أهمية هذه المرحلة ، فإن المفهوم الديناميكي للثورة يحتم علينا ألا نجعلها لحظة فاصلة بين ما قبل وما بعد في العملية الثورية .

ولما كانت الثورة تنبثق موضوعية فانها في مجملها تحاول أن تتجاوز مجتمع القهر لتقيم مكانه مجتمع الرجال الذين يمارسون تجربة متصلة من أجل تحقيق حريتهم ، وانطلاقاً من هذا المفهوم فإن الطبيعة الحوارية للثورة والتي تجعل منها عملاً ثقافياً لا بد وان تتمثل في جميع الظروف ، فهذه الطبيعة الحوارية هي التي تصحح مسار الثورة وتحول بينها وبين أن تصبح مجرد مؤسسات وتنظيمات بيروقراطية خاوية من المضمون فالذين ينجحون بالثورة إلى مثل هذه الاتجاهات في الغالب من الثوريين الذين تحولوا إلى ظاهرات رجعية ، وإذا كان في مقدور الناس أن يصلوا إلى السلطة من غير أن تكون لهم خبرة بها - بحسب مفهوم هؤلاء - فما الذي يمنعهم من أن يمارسوا الحوار قبل أن تكون لهم خبرة به .

إن العملية الثورية كما أسلفنا هي عملية ديناميكية وهذه الصفة وحدتها هي التي تمكن القادة والجهاهير معاً من تعلم أساليب الحوار وأساليب استخدام السلطة ، فالرجال يتعلمون السباحة في الماء ولا يتعلمونها بالجلوس في المكتبات .

واستناداً على ما ذكرناه يتضح أن التحوّل مع الناس ليس ضرباً من التنازل أو الهبة وليس هو وسيلة لتأمين السيطرة بل هو عامل مهم لمعرفة العالم من أجل استعادة انسانية الانسان وكما يقول « ماجو بتروفيك » :

« إن العمل الحر هو ذلك الذي يستطيع به الانسان أن يغير العالم ونفسه في ذات الوقت ومن أخص مستلزمات الحرية أن يدرك الانسان القيود التي تحد قدراته كما عليه أن يدرك طاقة الابداع الانساني ذلك أن النضال من أجل المجتمع الحر لا يمكن له أن يتحقق ما لم يوفر الانسان لنفسه أعلى درجات الحرية » .

وإذا قبلنا الرأي السابق وجب علينا أن نعلم أن الثورة عملية تعليمية بالضرورة وذلك ما يحتم أن تكون الطريق إليها مفتوحة يسير فيها الناس دون أن تضع العراقيل امامهم ، وذلك ما يحتم أن يكون العمل الثوري قائماً على الثقة بالناس والا يترك مجالاً لعدم الثقة بهم وكما قال لينين :

« فبقدر ما تحتاج الثورة الى التنظير فان قادتها ملزمون بأن يقفوا الى جانب الناس مشاركين لهم في مقاومة الطغيان » .

واعتماداً على ما ذكرناه من فرضيات نبدأ عرضاً مفصلاً لنظريات العمل الحوارى واللاحوارى في العمل الثورى .

الغزو :

من أول ما يلاحظه الانسان في العمل اللاحوارى ظاهرة الغزو أو الاستلاب ، فالذي لا يؤمن بأسلوب الحوار لا يستهدف في علاقاته مع الآخرين سوى هزيمتهم بكل الوسائل المتاحة ، العنيفة منها والمهذبة ، القامعة أو الأبوية . وكما هو معلوم فان الغزو بطبيعته يستوجب قطبين أحدهما غاز والأخر مغزوع أو بتعبير آخر فانه يستوجب سالباً ومستلباً أو هازماً ومهزوماً ، ويعتمد الغازى في كل الظروف الى فرض أهدافه على المغزوع حتى يجعله جزءاً من ممتلكاته الخاصة، ولكي يمارس المغزو حياته فانه يستبطن شخصية الغازى في داخله وبذلك يمارس وجوداً مزدوجاً يحوله من طبيعته الانسانية الى مجرد شيء أو الى جثة هامدة بلا حياة، وإذا كانت تلك هي النتيجة الحتمية للعمل اللاحوارى ، فان الحوار على العكس من ذلك تماماً يقود الى أن يمارس الانسان كينونته دون ازدواج وينبغي أن نذكر دائماً أن اتصاف الرجل بالندية الحوارية أو اللاحوارية لا يتم في فراغ وإنما يكون في هذا العالم الذي نعيش فيه حيث لا يتدرج الرجل من طبيعته اللاحوارية الى طبيعته القاهرة بل يمارس القهر واللاحوار في وقت واحد . وهكذا فان ظروف القهر تحتم الا يكون القاهر حوارياً ذلك أنه يستخدم القهر لتجريد المقهور من احساسه بالعالم وبذلك يتمكن هو من تحقيق مصالحه الخاصة. ونستطيع أن نقول على وجه الاجمال انه بمجرد أن يتولد الموقف

القهري فان اللا حوار يصبح ضرورة من أجل الحفاظ عليه . وينفس المنطق فيما دام العمل التحريري هو حوارى بالضرورة فان الحوار لا يمكن له أن يأتي في مرحلة لاحقة من مراحل العمل بل يجب أن يكون مساوفاً لذلك العمل ، كذلك ولما كان التحرير عملاً ذا طبيعة دائمة ومتصلة استوجب أن يكون الحوار أيضاً ذا طبيعة متصلة ودائمة في العمل الثوري . ومن هنا يتبين لنا أن الرغبة في الغزو أو بالأصح ضرورة الغزو انما هي لازمة أساسية في العمل اللا حوارى ولأجل أن يتحقق الغزو فان القاهر ينجح الى تحطيم قدرة الرجال في تمييز العالم ونظراً لأن القاهرين لا يستطيعون تحقيق ذلك بصورة كاملة فهم ينجحون الى خلق احساس خرافى بالعالم حيث يقدمون للمقهورين علماً من الخداع يزيد من سلبيتهم واغترابهم ويتبعون في تحقيق هذه الغاية أساليب كثيرة من أجل أن يجعلوا العالم يبدو في نظر المقهورين وكأنه كتلة جامدة واجبههم الاساسى هو التأقلم معها . وكما أسلفنا فان تحقيق هذه الغاية يتم عن طريق التضييل الذي يودعه القاهرون في عقول المقهورين، ومن أهم أساليب التضييل ايهام المقهورين بأن مجتمع القهر هو مجتمع الحرية حيث الرجال جميعهم أحرار يحق لكل منهم أن يعمل في المكان الذي يريده كما يحق لكل منهم أن يختار الرئيس الذي يريده وان لم يعجبه رئيس ما انصرف منه الى رئيس آخر ، ومن بين الخرافات أيضاً زعم القاهرين أن مجتمعهم يحترم الحقوق الانسانية وأن أي عامل فيه يمكنه أن يصبح مضارباً وأن أي بائع في الشارع له قيمة تعادل قيمة صاحب المصنع الكبير وأن التعليم حق للجميع ، ذلك في الوقت الذي لاتصل فيه سوى قلة قليلة من أبناء البرازيليين الى مستوى الجامعة . ومن بين أساليب التضييل أيضاً ايهام المقهورين بأن جميع الرجال متساوون دون التفات لما يواجهه هؤلاء من أسئلة مثل هل تعرف مع من تتحدث ؟

ومن الخرافات أيضاً اصفاء صفة البطولة على الآخرين ، واطهارهم وكأنهم المدافعون عن الحضارة المسيحية الغربية ضد المادية البربرية ، ومنها أيضاً أسطورة كرم الصفوة المتحكمة وخرافة أن التمرد هو عصيان لأوامر الله وأن الملكية الخاصة ضرورة للتقدم الانساني وأن القاهرين طبقة عاملة بالضرورة وأن المقهورين كسالى وغير أمناء بالضرورة أيضاً ، ذلك بالاضافة الى علو طبقة القاهرين وسفار طبقة المقهورين بالضرورة .

كل تلك الخرافات وغيرها هي التي ركز القاهرون على أن يستبطنها
المقهورون من أجل أن يحافظ القاهرون على وضعهم في قلوب أولئك المستغلين وقد
ركزوا على أن تتم عملية الاستيطان هذه بواسطة الدعاية والشعارات المنظمة التي
تستخدم فيها وسائل الاتصال العام الحديثة .

وعلى وجه الاجمال فيمكننا أن نقول : ان القهر لا يمكن له أن يتحقق الا اذا
دعم في نفس الوقت باللاحوار، ويمكننا أن نقول ان اللاحوار وسيلته الأبدية هي
تحقيق الغزو المستمر لعقول وقلوب المقهورين .

لقد تحدثت الصفوة المسيطرة في روما القديمة عن اعطاء الخبز واقامة حلقات
السيرك للجماهير لأجل تحقيق السيطرة عليهم، وتركز الطبقة المتسلطة في عصرنا على
أن تحقق غزو الآخرين سواء كان ذلك بالخبز أو غيره . حقاً فان محتوى الغزو
وطرائفه تختلف من عصر الى عصر ولكن الذي لا يختلف ما ظلت الطبقة المتسلطة
قادرة هو الرغبة المستميتة في القهر .

فرق تسد :

يعتبر هذا المبدأ من المبادئ المهمة في العمل القهري ويرجع تاريخه الى بداية
القهر ذاته ويتلخص في أنه ما دامت الأقلية في مجتمع القهر هي التي تخضع الأغلبية
لسيطرتها فان سبيلها للبقاء في الحكم رهن بقدرتها على تفريق كلمة المقهورين . ولما
كان هذا هو حال الأقلية التي لا تستطيع أن ترى الأغلبية مجتمعة على كلمة سواء لأن
في ذلك تهديداً لمكانتها فانها تعمل بكل الوسائل مهما بلغت درجتها في الضعف
والبدائية لتحول دون احساس الأغلبية بحاجتها الى الوحدة ، ولذلك فأنت تجد
تدرج مفاهيم الوحدة والتنظيم والتضال تحت قائمة الأعمال الخطرة وهي بالفعل
خطرة بالنسبة لمجتمع القاهرين ، لأن مجرد ادراكها يحرك في المقهورين رغبة جامحة
في الحرية .

ان ما يرغب فيه القاهرون بالفعل هو اضعاف المقهورين وعزلهم وتعطيل
قدراتهم في الابداع وتعميق الهوة التي تفصل بين تفكيرهم المشترك . ويتخذ

القاهرون لانجاز هذه الأهداف وسائل شتى تتراوح بين مستوى القهر البيروقراطي والتضليل الثقافي الذي يوحى للناس أن القاهرين يقومون بمساعدتهم ، ولعل من أخطر وسائل القهر الثقافي هو ما يقوم به بعض المتخصصين الذين يركزون فكرهم في قضايا جانبية وجزئية يحجبون بها الناس عن رؤية الواقع في صورته الشاملة ، ومن أبرز مظاهر التغريب والعزل الثقافي ذلك الذي يمارس تحت شعار تنمية المجتمع حيث تقسم المنطقة الى مجتمعات محلية دون دراسة عميقة لطبيعة هذه المجتمعات ككل متكامل في اطار واقعها الخاص من جهة وكجزء من المجتمع الكبير من جهة أخرى . إن هذه الممارسة هي ضرب من التجزئة التي تبقى على الناس متفرقين حتى لا يدركوا مشاكلهم الكبرى ويمكننا أن نقول ان التركيز على قضايا محددة في شريحة من شرائح المجتمع ثم تجسيم هذه الشريحة عمل يستهدف اعاقا المقهورين وعزلهم عن رؤية المشاكل التي يواجهها بقية أفراد المجتمع . وقد يستخدم أسلوب آخر في عزل الناس واعاقتهم عن رؤية مشاكلهم وهو ما يسمى ببرامج تدريب القادة التي لا تستهدف سوى عزل الناس وصرفهم عن واقعهم وتقوم هذه البرامج على تصور ساذج فحواه أن تدريب القادة يؤدي الى تطوير المجتمع وكأن الجزء هو الذي يطور الكل وليس الكل هو الذي يتطور وتتطور الأجزاء من خلاله ، ولا شك أن أولئك الاشخاص الذين تثبت عندهم قدرات على تحمل مسئوليات القيادة ويختارون الى هذه المهمة انما هم في حقيقتهم يمثلون طموحات المجتمع بأسره ، فهؤلاء الرجال على نسق تام مع الطريقة التي يعيش أو يفكر بها أصحابهم في الحياة الواقعة ، ورغم أنهم قد أظهروا قدرات خاصة ميزتهم عن بقية أفراد المجموع ولكن بمجرد أن ينهى هؤلاء تدريبهم ويعودوا الى مجتمعاتهم من جديد بامكانات لم يكونوا يمتلكونها من قبل يتشكل سلوكهم في أحد سبيلين فاما أنهم يستخدمون امكاناتهم المكتسبة لتأكيد القهر المسلط على زملائهم واما أنهم يعيشون كالغرباء في مجتمعاتهم وتهدد بذلك مكانتهم القيادية السابقة ، وبرغم قسوة الاختيار فانهم يختارون بالطبع ممارسة استغلال المجتمع ربما بطريقة أقدر من أجل المحافظة على وضعهم القيادي،ولكن عندما يكون العمل الثقافي متجهاً نحو المجتمع بأسره وغير مقتصر على القادة فحسب فان العكس تماماً يحدث لأنه في مثل هذه الحال اما أن تنسجم القيادة مع الشعب واما أن تستبدل القيادة بأسرها من أجل ايجاد قيادة جديدة تعبر عن ضمير الناس . وليس

غريباً أن يعارض القاهرون تثقيف المجتمع بأسره ويؤيدوا تثقيف حفنة من القادة ،
ذلك أن تثقيف القادة على طريقة القاهرين يساعد على تعطيل قدرات الناس في
الاحساس بواقعهم وبالتالي تتحقق تجزئة المقهورين وتفرقتهم .

ولعل من أكثر الأمور ازعاجاً للقاهرين هي الصراعات الطبقية بالقاهرون لا
يرغبون في تمييز أنفسهم كطبقة قاهرة ، ولذلك فأنت تجدهم يطالبون دائماً بإيجاد نوع
من التفاهم والانسجام بين أصحاب العمل والعمال دون ادراك لأن التناقض بين
هاتين الفئتين يجعل الانسجام بينهما مستحيلاً ، وبرغم ذلك فلطالما دعت الصفوة
المسيطرة الى الانسجام بين الطبقات وكأنما الطبقة لا تعني أكثر من مجموعة من الأفراد
ينظرون بغرابة الى نافذة دكان في ظهر يوم من أيام الأحد ، ويغيب عن هذه الصفوة
أن الانسجام الوحيد المتاح لها هو الانسجام الذي يتم بين أفراد الطبقة ذاتها . حقاً
انهم قد يختلفون وقد يتشاجنون عندما تتعارض مصالحهم ولكنهم سرعان ما
يتحدون عندما تتعارض مصالحهم أو عندما يواجه طبقتهم اي تهديد خارجي ، أما
المقهورون فانهم لن يستطيعوا ممارسة الانسجام الا حين تشغل طبقتهم في ممارسة
النضال من أجل التحرير ولا ينفي ذلك أنه في بعض الحالات قد يضطر القاهرون
والمقهورون الى الاتحاد والظهور بمظهر الانسجام وبمجرد أن تزول الأسباب
العارضة يعودون الى تناقضهم القديم الذي لم يكن قد انتهى في المرحلة السابقة وإنما
قد اختبأ الى حين .

ويبدو من ذلك أن كل تصرفات الطبقة المتسلطة تتركز في احداث التفرقة بين
المقهورين للحفاظ على وضعيتها وتتجلى مثل هذه التصرفات في تدخلها في العمل
النقابي مؤيدة بعض المرشحين الذين يمثلون مصالحها ومحتضنة بعض الأشخاص
من ذوي النزعات القيادية من أجل تدجينهم ، كما تتدخل من أجل توزيع المصالح
لبعض المنتفعين والحاق الجزاء ببعضهم الآخر . كل هذه وتلك من أساليب التفرقة
التي تمارسها الصفوة تبغي بها الحفاظ على وضعيتها ، وهي أساليب تعتمد بطريقة
مباشرة أو غير مباشرة على استغلال بعض جوانب الضعف في الطبقات المقهورة ،
ويتجلى من ذلك أن المقهور الذي يستوطن القاهر في داخله يعيش في غير مأمن من
عسفه ويحقق بهذه الازدواجية مصالح القاهرين التي تبعد عن مصالح طبقته .

ولا شك أن المقهورين يعرفون بالخبرة نتيجة عدم استجابتهم لدعوة تحول بينهم وبين توحيدهم كطبقة فالنتيجة في جميع الأحوال هي الفصل أو وضعهم في القوائم السوداء أو قفل أبواب الرزق في وجوههم . وهذا تأكيد على أن السبب الرئيسي في عدم احساسهم بالأمن هو عبوديتهم للعمل الذي يقومون به ومن هنا يبدو أن الانسان لا يستطيع أن يحقق رجولته الا إذا تمكن من ابداع عالمه الخاص واستطاع في نفس الوقت أن يبدع العمل الذي يمكنه من تغيير صورة العالم . وإذا كان بقاء الرجال في محيط العمل يعني فقط أن يعيشوا في غير مأمن ومهدين فإن ذلك نذير بعدم تمكنهم من تحقيق رجولتهم لأن العمل الذي لا يكون حراً إنما هو ظاهرة من ظواهر القهر يمارس ضد انسانية الانسان وفي ضوء ذلك ندرك أن وحدة المقهورين هي في الواقع خطوة نحو ادراكهم لحقيقة أن تفردهم يساعد على وقوعهم فريسة للاستغلال والسيطرة والممارسات اللاانسانية وعلى نقيض ذلك فإن الوحدة والتنظيم يساعد هؤلاء على تجاوز ضعفهم وانماء قوة التعبير التي يستطيعون بها إعادة ابداع العالم بمجعله صالحاً لبيئة الانسان . وهذا العالم الجديد هو نقيض عالم القهر الذي لا يمتلكه الا القاهرون وحدهم . ويتضح من كل ذلك أن سياسة « فرق تسد » هي في الواقع هدف رئيسي لنظرية العمل غير الحوارية حيث يحاول بها المسيطرون أن يظهرُوا أنفسهم وكأنهم مخلصون للرجال الذين يعانون من قهرهم ، ولكن هذه المسيحية الكاذبة لا تستطيع أن تحجب نواياهم الحقيقية فهم لا يريدون سوى الحفاظ على ثرائهم وقوتهم وأساليب حياتهم وتلك كلها من الوسائل التي تعينهم في السيطرة على الآخرين غير أن خطأهم يتركز في أنهم لم يستطيعوا أن يدركوا أن الخلاص لا يتحقق لهم الا في العمل مع الرجال ، وما داموا يقهرون فانهم لا يستطيعون أن يكونوا مع غيرهم من الرجال ذلك أن القهر هو حائل أعظم بين الطرفين .

ولقد يكشف التحليل السايكولوجي أن الكرم الزائف للقاهرين إنما هو تعبير عن الاحساس بالذنب ، فبهذا الكرم الزائف لا يحاول القاهر فقط الحفاظ على نظام غير عادل ومميت ، وإنما يحاول ايجاد السلام لنفسه ولكن السلام لا يشتري بهذا الاسلوب ، لأن السلام إنما يستشعر عن طريق التماسك والحب ، الذي لا يمكن أن يكرس في ظروف القهر ، وبذلك فإن المسيحية الكاذبة في نظرية العمل اللاحواري

هي في حقيقتها تأكيد لأهم مقومات هذا العمل أي الحاجة الى الغزو . وما دامت هنالك فئة ترى ضرورة تقسيم الناس من أجل الحفاظ على وضعها كطبقة قاهرة فان هذه الفئة تجهد في ألا يرى المقهورون استراتيجية قهرهم لذلك تجدهم يحاولون اقناعهم بأنهم حათهم ضد الأعمال الشيطانية وضد المتطرفين والمشاكسين وأعداء الله ، وهكذا لأجل أن يقسم القاهرون الناس ويربكوهم فانهم يسمون أنفسهم بناة فيما يعتبرون البناة الحقيقيين هدامين وأعداء، ولكن التاريخ يأخذ على عاتقه تصحيح هذه الأوضاع الخاطئة ، فعلى الرغم من أن الوثائق الرسمية تسمى تايرادنتيس - زعيم ثورة مجهضة لاستقلال البرازيل من البرتغال عام ١٧٩٨ - وما فعله مؤامرة فان البطل في نظر الجماهير ليس هو ذلك الذي سماه لصاً وحكم عليه بالموت والتقطيع ونثر أجزائه في القرى المجاورة ليعتبر بها الناس بل البطل في نظر هؤلاء هو تايرا دينتيس . لقد مزق التاريخ كل الصفات التي الصقتها به الصفوة المتسلطة وأقام مكانها اعترافاً بأعماله البطولية لأن الأبطال في تلك المرحلة كانوا هم الرجال الذين اتحدوا من أجل تحقيق حريتهم وليس الذين قسموهم من أجل أن يحكموا

الاستغلال :

يشكل الاستغلال بعداً آخر في العمل غير الحوارى وهو كمنظيره « فرق تسد » وسيلة من وسائل الغزو ، ولا يخفى أن الغزو هو المحور الذى تدور عليه كل أبعاد النظرية ، فبوسيلة الاستغلال تحاول الطبقة المتسلطة أن تجعل كتلة الناس تتوافق مع أهدافها ويقدر ما تكون الجماهير غير ناضجة في خبرتها السياسية بقدر ما تسهل عملية استغلالها بواسطة أولئك الذين لا يريدون فقدان سلطتهم. ولقد أوضحنا خلال هذا الفصل كثيراً من الأساطير والخرافات التي يستغل القاهرون بها الناس ، ولكن تبقى هنالك أسطورة يستهدف بها القاهرون ابعاد الناس عن تحقيق طموحاتهم وهي اسطورة البرجوازي ، اذ لا يمكن للخرافات والأساطير السابقة أن تحقق أهدافها ما لم يقبل الناس أسطورة البورجوازي ، ففي بعض الحالات تتم عملية الاستغلال بواسطة حلف بين القاهرين والمقهورين، والذين لا يتبينون حقيقة هذا الحلف قد يظنونه علاقة حوارية بين الطرفين ، وهو في حقيقته غير ذلك لأنه

محكوم بأهداف القاهرين وأغراضهم ، فالتأييد الذي يمنحه الناس لما يسمى بالبرجوازية الوطنية في مواجهة ما يسمى بالرأسمالية الوطنية هو نموذج لما أردنا بيانه ، ولكن مثل هذا التأييد لن يقف حائلاً دون اكتشاف الناس عاجلاً أو آجلاً للحقيقة المتمثلة في خضوعهم للقهر . ومن الغريب أن مثل هذه التحالفات لا تعرض للناس إلا عندما يبدأون تحركهم من أجل تهديد سلطة القاهرين ولعب دورهم المحتم في التاريخ ، ففي مثل هذه الظروف بضائع القاهرون تكتيكاتهم من أجل مزيد من الاستغلال . ويصبح الاستغلال في هذه المرحلة وسيلة فعالة في الحفاظ على مصالح الصفوة المسيطرة ، والملاحظ هو أن القاهرين لا يلجأون إلى أسلوب الاستغلال قبل أن يبدأ الناس تحركهم ضد مجتمع القهر فهم يلجأون في الظروف العادية إلى أسلوب القمع اذ لا داعي للجوء للاستغلال ما دام الناس غير مدركين لحقائق العالم حولهم ، فالاستغلال في نظرية العمل غير الحوارية هو مواجهة حتمية تفرضها استجابة القهريين لنداءات العملية التاريخية الجديدة ويستهدف القاهرون من خلال عملية الاستغلال هذه توجيه الناس إلى أنواع مزورة من التنظيم ~~تجهم~~ التهديدات المحتملة في حال دخولهم في تنظيم حقيقي ذلك أن التنظيم الحقيقي يقود القهريين إلى تحقيق حريتهم فأما الاخفاق فيقودهم إلى عكس ذلك تماماً . وما دام الأمر كذلك فإن المستلطين لا يمكن لهم أن يساعدوهم على انجاز تنظيمهم الحقيقي لأن التنظيم الحقيقي هو من مهمة القادة الثوريين وليس من مهمة المستلطين ، وقد يحدث في قطاعات كثيرة أن يشكل القهريون في التجمعات الصناعية « بوليساريا مدنية » ولكن هذه التجمعات الانتكالية كثيراً ما تفقد روح الثورة حين تعتبر نفسها محظوظة بعض الشيء ولذلك فهي على الدوام بيئة صالحة للاستغلال عن طريق الخداع والدعوة الكاذبة .

أما تلك البيئة التي لا ينجح فيها الاستغلال فهي التنظيم الثوري الناقذ الواعي بالمشكلات والذي ما يفتأ يطرحها على الناس كفضايا تحدد لهم موقعهم من العملية التاريخية وتبصرهم بالحقيقة الوطنية وحقيقة الاستغلال ذاته .

يقول « فرانسيكو ويفرت »

« إن كل سياسات اليسار معتمدة على الجماهير وعلى وعيها بها فإذا ما اختل هذا الوعي فسيفقد اليسار جذوره وسيتهار على الرغم من أن اليسار كما هو الشأن في البرازيل يظل يوهم نفسه بأنه يستطيع تحقيق الثورة عن طريق العودة السريعة الى الحكم . » .

وهكذا ففي ظروف الاستغلال يظل اليسار مغرماً بالعودة السريعة الى السلطة وبذلك يتناسى ضرورة الاتحاد مع المقيهورين وينصرف الى تكوين تنظيم يقيم به حواراً مستحيلاً مع المستلطين ينتهي به الى أن يصبح هو نفسه مستغلاً بواسطة الصفوة ولعله يشترك معهم في لعبة القهر وقد يبرر هذه المشاركة بأنها ضرب من الواقعية .

وكما الغزو فإن الاستغلال أيضاً هو محاولة لتحجيد الناس وصرفهم عن التفكير في الواقع ذلك أن التفكير في الواقع يؤدي بهم الى القيام بالعمل الحقيقي وسواء سمي هذا التفكير الصحي وعياً ثورياً أو طبقياً فهو ضروري في مرحلة ما قبل الثورة ، ولما كانت الطبقة المسيطرة تدرك ذلك تماماً فإنها تعتمد الى استخدام جميع الوسائل بما فيها العنف لمنع الناس من التفكير في هذا الاتجاه وتدرك هذه الطبقة أن الحوار يؤدي بالضرورة الى تطوير نزعة النقد . وكما يعتبر بعض القادة الثوريين أن الحوار مع الناس نزعة بورجوازية رجعية فإن البرجوازيين يعتبرون الحوار بين المقيهورين وقادة الثورة مظهراً خطراً لا بد من تجنبه ، وأيضاً فمن أساليب الاستغلال والسيطرة محاولة جر الافراد الى نزعة تحقيق النجاح الفردي وهي نزعة سائدة عند البرجوازيين وبطريقة مباشرة أو غير مباشرة فإن المستلطين يتخذون القادة الجماهيريين هدفاً لذلك ، وكما يقول « ويفرت » فإن هؤلاء القادة عندما يخضعون لهذا النوع من التسلط يعملون كوسطاء بين الطبقة المستلطة والجماهير . ولما كان ظهور هؤلاء القادة في الاساس مرتبطاً بظهور طبقة المقيهورين فإن وضعهم الجديد يجعلهم يمارسون نوعاً من الازدواج تتميز فيه نفوسهم بخصائص المقيهورين والقاهرين في آن معاً . وما ظل القائد الجماهيري يمارس الاستغلال بدلاً من الانصراف الى التنظيمات الشعبية الفعالة فإنه لا يخدم الثورة بحال من الأحوال ذلك أن سبيله الوحيد لخدمة الثورة هو الاقلاع عن ممارسة الازدواج وتوطين نفسه لقضية المقيهورين وبذلك يتوقف عن أن

يكون مجرد واجهة شعبية لأنه ان فعل ذلك نبذ الاستغلال وتم انحيازه لتنظيم الثورة الحقيقي وهو هذا العمل يتوقف عن أن يكون مجرد وسيط بين الجماهير والمتسلطين، وبدلاً من ذلك فسيصبح مواجهاً لطبقة المستغلين بما يحتم على القاهرين أن يتخذوا الاجراءات لاسقاطه ولتأمل ما قاله « جيتوليو فارغاس » في هذا السياق وذلك في عيد العمال في آخر فترة رئاسته « أريد أن أخبركم بأن العمل التجديدي الضخم الذي تتطلع به ادارتي لا يمكن أن ينجز بدون وقفكم الصلب وتعاونكم اليومي معي » ولقد تحدث فارغاس أيضاً بمناسبة قضائه تسعين يوماً في السلطة عما أسماه تقوياً للعقبات والمصاعب التي واجهت حكومته .

لقد تحدث مباشرة الى الناس عما يحس به من أسف تجاه العجز والفقر وارتفاع مستوى المعيشة مع انخفاض المرتبات وتحدث عن تطلع الأغلبية لمستقبل أفضل مع فقدان الأمل . ولقد كان حديثه في كل ذلك متسماً بالموضوعية . قال :

« لقد جئت اليكم لأخبركم أن الادارة لا تملك في هذه اللحظة القوانين التي تحمي بها مصالحكم الاقتصادية لذلك فمن واجبيكم أن تنظموا أنفسكم ليس من أجل الدفاع عن أهدافكم فحسب بل لتمنحوا الحكومة السند الذي يمكنها من تحقيق اهدافكم . انني محتاج الى وحدتكم وتماسككم لذلك فإني أدعوكم لتنظيم أنفسكم في نقاباتكم لتكونوا جبهة قوية متحدة تقف الى جانب الحكومة وتدعمها حتى تتمكن من حل جميع مشاكلكم . أريد وحدتكم لأجل أن تناضلوا ضد ساحقيكم كيلا تقعوا فريسة للمضاربين . لقد حانت الساعة التي تتحدون فيها في نقاباتكم من أجل تحقيق حريتكم وقوتكم المنظمة فليست هنالك الآن ادارة تستطيع أن تحقق اهدافها الاجتماعية دون مساندة تنظيمات القوى العاملة » وعلى وجه العموم فقد لجأ فارغاس في خطبته الى دعوة الجماهير كي توحيد قوتها وتنظيمها دفاعاً عن حقوقها فلقد أخبرهم بوصفه رئيساً للدولة عن العقبات والمصاعب التي تواجه الحكم معهم، ومنذ تلك اللحظة فقد بدأت ادارته تواجه مزيداً من المصاعب حتى جاءت القمة المأساوية عام ١٩٥٤ ، ولعله لو لم يكن فارغاس قد وجد الشجاعة في نفسه لدعوة الناس كي يتوحدوا من أجل حماية مصالحهم وبنى على ذلك سلسلة من الاجراءات الوطنية لما تحركت الصفوة الرجعية بأقصى أساليبها ضد نظامه .

ومن ذلك يتضح أن أي قائد يرفض أن يكون وسيطاً بين الناس والصفوة ويتخذ خطواته نحو الناس ، فإن الصفوة تعمل بكل قواها لاحتوائه أو تدميره ان ملكت القوة الى ذلك، أما اذا اكتفى بالدور الأبوي وتقديم مشروعات الرفاهية الاجتماعية حتى وان كانت بينه وبين الصفوة خلافات وقتية فإنه لن يواجه بمعارضة عميقة الا في النادر ذلك أن مشروعات الرفاهية الاجتماعية تستخدم في بعض الأحيان لاحكام الاستغلال من أجل غاية الغزو وذلك لما تتميز به هذه المشروعات من تأثيرات انصرافية تحرف الناس عن التفكير في أسباب مشكلاتهم الحقيقية ومحاولة إيجاد الحلول لها . فهذه المشروعات تقسم الناس الى مجموعة أفراد كل منهم يحاول أن يحقق بعض المصالح لنفسه ولكن هذا الوضع له انعكاسات سلبية أيضاً لأن الفرد الذي يحصل على القليل يطمع في الكثير والذي لا يحصل يقتل نفسه بالمرارة والحقد ويطالب بحصته في المساعدة ، وما دامت الصفوة المسيطرة لا تستطيع أن تقدم له شيئاً فإنها تنجح الى مزيد من الاجراءات الكابحة ، وهنا يجب أن يستفيد قادة الثورة من تناقضات الاستغلال بعرضها كمشكلات أمام جماعة المقهورين والاستفادة منها في تنظيمهم من أجل تحرير أنفسهم .

الغزو الثقافي :

تتميز نظرية العمل اللاحواري بخصيصة أخيرة ومهمة تلك هي خصيصة الغزو الثقافي وهذه الخصيصة كخصيقاتها تعتمد على تكتيكات التفرقة والاستغلال حتى يتسنى لها أن تخدم الغاية النهائية للسيطرة وهي الغزو وفي هذه الظاهرة يخترق الغزاة الواقع الثقافي لجماعة من الناس متجاهلين امكانات هذا الواقع ومحاولين فرض تصوراتهم الخاصة للعالم على أولئك المخضعين من أجل تعطيل قدراتهم على الابداع والتعبير . وبصرف النظر عما اذا كان الغزو الثقافي متحضراً أو همجياً فإنه مظهر من مظاهر العنف موجه ضد فئة من الناس من أجل اضعاف أصالتها وتهديدها بالزوال وكأي عمل لاحواري فإن الغزاة يمارسون دور المؤلفين والممثلين في هذه العملية وأما الذين يتم اخضاعهم فيشكلون المسرح الذي ينجزون فيه مثل هذا العمل .

وفي هذه التمثيلية يقوم الغزاة بدور الاختيار في حين يقوم المغزؤون بقبول هذا الاختيار أو على الأقل يتوقع منهم أن يفعلوا ذلك ، واذا كان الغزاة هم الممثلين

فان المغزيين يتحتم عليهم أن يتوهموا أنهم يقومون بدور مشابه من خلال تمثلهم لأدوار الغزاة وهكذا فإن جميع الوان السيطرة تتضمن شيئاً من الغزو. وقد يكون هذا الغزو ظاهراً أو قد يتكرر في بعض الأحيان في ثوب التمويه، وذلك بالطبع حين يتظاهر الغزاة بأنهم أصدقاء. وعلى وجه الاجمال فان الغزو ضرب من السيطرة الاقتصادية والثقافية وقد تمارسه دول متمدينه على مجتمع ضعيف وقد تمارسه طبقة ما على طبقة أخرى في اطار المجتمع الواحد . وفي جميع الحالات فإنه يؤدي الى طمس حقيقة أولئك الذين يخضعون له وذلك من خلال استجابتهم لقيم ومقاييس وأهداف الغزاة ، فالغزاة من أجل تنفيذ رغباتهم في السيطرة وتغيير حقيقة الآخرين كي تتوافق مع واقعهم يحسون بدافع عميق لمعرفة الطريقة التي ينظر بها المغزؤون للعالم وذلك من أجل احكام السيطرة عليهم ، ذلك أن نظرية الغزو الثقافي تقوم على أن ينظر المغزؤون الى واقعهم من خلال نظرة الغزاة لهم ويقدر ما يقلدون هؤلاء الغزاة بقدر ما يتأمن وضع الغزاة ولأجل أن يتحقق هدف الغزو فلا بد أن يقتنع المغزؤون أولاً بدونيتهم لأن في اقتناعهم بالدونية اعترافاً بعلوية الغزاة ، وفي هذا الاعتراف يكمن التحول الذي يؤدي بالمغزوين الى تمثل خطى الغزاة في طرائق مشيهم ولبسهم وسلوكهم الاجتماعي وبذلك يتحقق الازدواج في شخصياتهم . وهذا الازدواج هو الذي يوضح لماذا يتعاش المقهورون في بعض المراحل مع قاهريهم . ولا يمكن لهذا الازدواج أن ينتهي الا اذا نزع المقهور نفسه بعيداً عن قاهره حتى يتمكن من تمييزه على البعد وبذلك يدرك التناقض القائم بين شخصيته وشخصية القاهر ، ففي هذا العمل يدرك أي ظروف لا انسانية يعيش فيها. وهذا التغيير النوعي - وحده - في النظرة يتأتى تغيير العالم عن طريق النضال .

ويتبين من ذلك أن الغزو هو أداة للسيطرة من جهة ونتيجة لها من جهة أخرى وكغيره من أنواع العمل اللاحواري فهو في الحقيقة نتاج طبيعي لمجتمع القهر ، ذلك أن التركيبة الاجتماعية الصارمة والتي تقوم على مبادئ القهر تؤثر بلا شك على المؤسسات بترية الاطفال وتعليمهم ، فهذه المؤسسات تتشكل بحسب طبيعة النظام الذي تنتمي اليه وتتخذ من نفسه وسائل لنقل خرافاته وتمويهاته وأساطير ولعله من المعروف أن البيوت والمدارس لا توجد في فراغ وانما توجد في مجتمع ما .

ظل السيطرة تصبح المدارس من مستوى الحضانة الى مستوى الجامعة فرائحات لغزة المستقبل ، ومن المحتم أن تنعكس على علاقة الابن وأبيه كل الظروف الثقافية التي تسيطر على المجتمع الخارجي ، فاذا كانت المبادئ التي تخترق جدار المنزل صارمة ومتحجرة ومبنية على فلسفة القهر فإن المنزل سيغذي الاحساس بالقهر ذلك أن أي تعميق للعلاقة الصارمة بين الاب وابنه تجعل الأطفال يستبطنون السلطة الأبوية . وكعادته في الوضوح يحلل « فروم » الظروف التي تؤدي الى القتل المعنوي ونقيضه سواء كان ذلك في علاقة الأب مع ابنه أو في العلاقات الاجتماعية .

يقول : « انه اذا ما نشئ الأطفال في ظروف يفتقدون فيها الحب ويمارسون بدلاً عن ذلك ظروف القهر فإن هؤلاء الأطفال في فترة الشباب لا ينجحون الى الانقلاب الصادق على واقعهم بل ينحرفون إما الى سلبية كاملة وإما الى بعد أكيد عن الواقع تحركهم الخرافات والاساطير التي شكلوا فيها من أجل تغريبهم . واذا لم يتجهوا الى إحدى هاتين الطريقتين فإنهم قد ينجحون الى العمل الاجرامي أو الهدام » .

وما يحدث في المنزل يتكرر في المدرسة أيضاً حيث يكشف الطلاب أنهم كي يحققوا بعض التوافق مع النظم المدرسية فلا بد لهم أن يمتثلوا لما يلقى عليهم من فوق ، وما يلقى عليهم هو الاقلاق عن التفكير .

وهكذا فبسبب استبطان السلطة الأبوية القائمة على صرامة العلاقة والتي تغذيها المدرسة فإن هؤلاء الاطفال حين يشبون ويصبحون رجالاً متخصصين يبدأون في اعادة نفس الاساليب التي أساء تعليمهم بها . ولا سبب لذلك سوى الخوف من الحرية الذي تم غرسه في نفوسهم .

وتفسر لنا هذه الظاهرة بمساندة الوضع الطبقي لماذا ينفر كثير من المتخصصين عن استخدام أسلوب الحوار ، ويصرف النظر عن نوعية التخصصات التي تقرب هؤلاء من الجمهور فأنت تجدهم يولدون في نفوسهم قناعة تامة بأحقيتهم في تعليم الجمهور أساليب معرفتهم وتكتيكاتهم في العمل، وأول ما يتجهون اليه هو فرض برامحهم التي تعبر عن أهدافهم الشبيهة بأهداف القاهرين . انهم لا يستمعون الى

الناس ولكنهم يجهدون أنفسهم كي يعلموهم كيف يطردون الكسل عن أنفسهم الذي هو سبب تخلفهم .

ويبدو في نظر هؤلاء المتخصصين أنه من العبث احترام وجهة نظر الآخرين عن العالم بل يعتبرون من العبث استشارة الآخرين في الأمور التي تخصهم ، فعندما يضعون محتوى البرنامج التعليمي يصيهم احساس بأن الناس في غفلة تامة ولا يصلحون لشيء سوى تلقي تعاليمهم، فبدل أن يعترف المتخصصون بفشلهم فإنهم يعتبرون الناس أخصاء ناكرين للجميل غير قابلين للتطور ومرضى أو أنهم من دماء مختلطة. أما أولئك المتخصصون الذين تحسن نيتهم والذين لا يستخدمون الغزو كأيديولوجية مقصودة بل يمارسونه كتعبير عن تكوينهم الثقافي فسرعان ما يكتشفون أن فشلهم لا يعزى الى وضاعة الناس بل الى قسوتهم في استخدام أساليب الغزو. والذين يكتشفون هذه الحقيقة يبدأون في مواجهة خيارات صعبة ، فهم يرغبون في التشهير بالغزو ولكن مثل هذا التشهير سوف يعود عليهم بالثبور تحت سلطة القهر . حقاً أن رفض الغزو يعني انتهاء ازدواجيتهم الثقافية كمستغلين ومستغلين وذلك يتطلب منهم أن يرفضوا جميع الخرافات والاساطير التي تكرس الغزو وليدخلوا مرحلة العمل الحوارية وهي المرحلة التي لا يكونون فيها « فوق » أو في « الداخل » كأغراب بل يكونون « مع » كرفقاء، وهنا يتلاشى خوف الحرية عند هؤلاء الرجال وقد يضطرون خلال هذه العملية الى عقلنة خوفهم بسلسلة من التبريرات . وفي نفس الوقت يظل الخوف عظيماً عند أولئك المتخصصين الذين لم يكتشفوا بعد طبيعة عملهم الغازي ولكنهم قد أخبروا المتخصصين الذين لم يكتشفوا بعد طبيعة عملهم الغازي ولكنهم قد أخبروا بالطبيعة اللاإنسانية لعملهم . ففي مرحلة تحليل المواقف قد يسأل بعض المشاركين في برنامجنا التدريبي المنسق الى أين تتجه بنا ؟

والحقيقة هي أن المنسق لا يتجه بنا الى أي مكان ولكن هذا السؤال يعني أن المشاركين قد بدأوا يدركون أنهم يواجهون موقفاً حقيقياً كمشكلة وهنا يدرك المشاركون أنه اذا تعمق تحليلهم فاما أن يفروا بأنفسهم من خرافاتهم أو يؤكدها . أما طرح الخرافات فانه يعني عندهم في تلك المرحلة عملاً من اعمال العنف وبالتالي فإن تأكيد تلك الأساطير يؤدي الى تأكيد انفسهم وكما أوضحنا في كتابي مقدمة في

العمل الثقافي فإن المخرج الوحيد في مثل هذه الحال هو أن يجسموا للمنسق تجاربهم الخاصة في الانقياد والغزو وقد يحدث مثل هذا التراجع في مجال ضيق بين الرجال الذين طحنهم القهر والذين دجنوا بواسطة الكرم الزائف .

يذكر أحد المدرسين الذين قاموا بعمل قيم في برنامج تعليمي بنيويورك تحت إشراف « روبرت فوكس » أن جماعة « غيتو » في نيويورك ووجهوا بموقف يحتاج إلى تحليل ويتمثل في كوم كبير من الأوساخ في أحد الأركان من نفس الشارع الذي يجتمع فيه الجماعة ، فقال أحد المشاركين اني أرى شارعاً في أفريقيا أو أميركا اللاتينية . فقال المدرس ولماذا لا يكون هذا الشارع في نيويورك ؟ فقال المشارك لأننا في الولايات المتحدة حيث لا يمكن أن يحدث مثل هذا الشيء .

لا شك أن هذا الرجل وجماعة من رفقاءه من الذين شاركوه الرأي قد بدأوا يتراجعون من حقيقة تسيء اليهم إلى درجة أن مجرد الاعتراف بها قد يهددهم ذلك أن الرجل المغرب بواسطة الانجازات الثقافية والنجاح الفردي عندما يعترف بالحقيقة السيئة لوضعه فإن ذلك يعوق إمكان تقدمه ، ففي الحالة المذكورة وفي مثال المتخصصين فإن ثقافة الرجل المسيطر تحول دون قدرات الرجال على اتخاذ القرار فلا المتخصصون ولا الجماعة المشاركون في أقدار نيويورك استطاعوا أن يعبروا عن أنفسهم كأفراد يشاركون في العملية التاريخية ، ذلك أنهم لا يستطيعون تنظير ابدلوجية القهر ، وعلى الرغم من أنهم أثر من آثار القهر فإنهم قد بدأوا يتحولون ليصبحوا من أسبابه، وهذه من أصعب الأمور التي تواجهها الثورة عندما تتسلم السلطة ، فهذه المرحلة تتطلب أقصى درجات الحكمة السياسية والشجاعة والقدرة على اتخاذ القرار من القادة الذين يجب ألا يقعوا أسرى للمذهبية الضيقة بغير وعي .

وسواء كان المتخصصون في أي قطاع من القطاعات من خريجي الجامعة أم لا فإنهم في ظروف القهر تتحدد هويتهم من أعلى بواسطة ثقافة القهر التي تحولهم إلى وجود مزدوج . ان هؤلاء المتخصصين ضروريون لإعادة تنظيم المجتمع الجديد . ويرغم أن الكثيرين منهم خائفون من الحرية وغير راغبين في المشاركة في عمل انساني ، فإن من واجب الثورة أن تستعيدهم إلى صفوفها . وتستوجب عملية

الاستعادة هذه أن يتطور القادة مما أسمىاء فيما قبل بالعمل الحوارى حتى يكونوا أهلاً لبدا الثورة الثقافية . وفى هذه المرحلة فإن الثورة تتجاوز أهدافها كقوة مواجهة لأولئك الذين كرسوا أنفسهم لقمع الرجال لتصبح دعوة مفتوحة لكل أولئك الذين يرغبون فى إعادة بناء المجتمع ، وبهذه الطريقة تصبح الثورة الثقافية استمراراً طبيعياً للعمل الثقافى الحوارى الذى بدأ به قبل أن تصل الثورة الى السلطة .

إن الثورة الثقافية تستهدف إعادة بناء المجتمع متخذة فى ذلك جميع الأنشطة الانسانية مجالاً لإعادة البناء، ذلك أن المجتمع لا يمكن أن يعاد بناؤه بطريقة ميكانيكية ، فالثقافة التى أعيد تكوينها بالثورة هى الأداة المهمة فى إعادة البناء وينسجم مع ذلك أن الثورة الثقافية هى أقصى درجات النوعى التى يحققها النظام الثورى ، ولذلك فلا بد أن تصل ثمرتها الى كل رجل بصرف النظر عن موقفه ، وبالتالي فلا يمكن أن يترك الأمر كله فى يد قلة من التقنيين أو العلميين ، فالمجتمع الجديد يختلف نوعياً عن المجتمع القديم من حيث أنه لا يוכל بالتقنية نفس المهام التى يوكّلها بها المجتمع القديم ، وكذلك فإن تدريب الرجال فى المجتمعين لا بد أن يختلف بحيث لا يتوغل التعليم التقنى والعلمى على التعليم الانسانى ، ذلك أن العلم والتقنية فى المجتمع الثورى هى مجرد أدوات لتحقيق أهداف التحرير والأئسة الدائمة .

ومن هذه الزاوية فإن تدريب الرجال لأية مهنة - طالما كان التدريب يتم فى اطار زمانى ومكانى - يستوجب أولاً أن يفهم هؤلاء أن الثقافة قادرة على احياء تراث الماضى فى داخل التنظيمات الثورية كما يقول « الثوسر » وهذه بالتالى قادرة على احداث التطوير الثقافى ولكن بمجرد أن تعمق الثقافة الثورية احساس الناس بالابداع الثورى فى المجتمع الجديد يبدأون فى ادراك الاسباب التى جعلت الاساطير القديمة تحيا فى اطار المجتمع الجديد، ومن ثم يستطيع الرجال تحرير أنفسهم عن تلك الاساطير التى تشكل عقبة أمام جميع الثورات ، فهذه الاساطير هى فى الواقع عملية غزو يقوم بها مجتمع القهر تجاه مجتمع الثورة الجديد . وهذا الغزو من أشرس الأنواع لأنه لا تقوم به طبقة متسلطة وإنما يقوم به الرجال الذين شاركوا فى الثورة

والذين ما يزالون يستبطنون القاهرين في داخل أنفسهم ، وبذلك يحولون دون تحقيق الاجراءات التي تتخذها السلطة الثورية ، فهم بطبيعتهم الازدواجية يقبلون السلطة البيروقراطية وما تسومه اياهم من عنف وقهر ويفسر « الثوسر » هذه الظاهرة بقوله: ان قبول هؤلاء لهذا الوضع هو في حقيقته احياء للعناصر القديمة المستبطنة في داخلهم متى كانت الظروف ملائمة لذلك في المجتمع الجديد .

ونظراً للأسباب السابقة فانني اعتبر العملية الثورية ضرباً من الحوار الثقافي طور الى ثورة ثقافية بمجرد الحصول على السلطة وفي كلتا المرحلتين لا بد من تهيئة الظروف للاحساس العميق بالواقع لأنه من الضروري أن يترك الرجال خلفهم واقعهم كأشياء ليستجيبوا لواقعهم الجديد ككائنات تاريخية . وأخيراً فان الثورة الثقافية لا بد لها أن تنهي الظروف لنوع من الحوار الدائم بين القادة والشعب وتؤمّن للشعب مشاركته في السلطة ، فهذه الطريقة وحدها حيث الشعب والقادة يمارسون سلطتهم الناقدة فإن الثورة تصبح قادرة على حماية نفسها ضد الاتجاهات البيروقراطية التي تؤدي الى مزيد من القهر وضد الغزو الذي يؤدي الى نفس الغرض وسواء كان الغزاة في مجتمع بورجوازي أو في مجتمع ثوري فإنهم قد يأتون اما من طبقة الزراعيين أو الاجتماعيين أو الاقتصاديين أو مهندسي الصحة العامة أو من بين الكهنة والرعاة والمعلمين والعمال أو حتى من بين الثوريين أنفسهم .

ويتضح لنا مما سبق أن الغزو الثقافي لا يخدم سوى غايات القهر واحكام التسلط فهو يحمل في طياته مفهوماً غير منظور للواقع ويحاول دائماً فرض واقع ما على واقع آخر، وبذلك فإنه يتضمن علوية الغزاة ودونية الذين يخضعون للغزو ويحاول جاهداً اقحام قيم الغزاة في مجتمع المغزوين حتى يحكم أولئك سيطرتهم على المجتمع المقهور وأبعد من ذلك فإن الغزو الثقافي يجرّد المقهورين من سلطة اتخاذ القرار ويضيفها على القاهرين بل ويعمل على ايهام المقهورين بأنهم يقررون لأنفسهم ، وهذا يفسر لنا لماذا لا يحدث تقدم اجتماعي اقتصادي في مثل هذا المجتمع المزدوج ذلك أن التقدم كي يحدث فلا بد أن تتوافر أولاً لطالبيه حرية اتخاذ القرار والقدرة على ممارسة الابداع وثانياً ألا تقتصر هذه الممارسة على المكان فقط وانما تمتد الى الزمان أيضاً .

وإذا كنا نقول ان كل تقدم هو بالضرورة تطوير فلا يمكننا أن نقول ان كل تطوير هو بالضرورة تقدم ، فالتطور الذي يحدث للحبة التي تصادف ظروفاً ملائمة للنمو لا يمكن أن نعتبره تقدماً وكذلك فإن تطور الحيوان لا يمكن أن نعتبره تقدماً ذلك أن تطور الحبة والحيوان انما يحدث في الزمن الذي ليس هو ملكاً لأي منهما ، أما بالنسبة للرجال فالأمر يختلف لأنهم يمتلكون أزمانهم الخاصة وعلى ذلك فإن الرجال هم وحدهم من بين الكائنات يمتلكون القدرة على التقدم لأنهم يستطيعون التقدم في أزمانهم الخاصة وذلك يوضح لنا أن الرجال الذين يخضعون لظروف الفهر لا يمكن أن يتقدموا لأن وجودهم في حقيقته هو وجود مزيف تحت ظروف الفهر . انهم يفتقرون الى حقهم في اتخاذ القرار وهي سلطة انتزعها منهم القاهرون وأبدلوهم مكانها الانصياع للوصفات التي يملونها عليهم ، وبذلك لم يعد في امكانهم التقدم الا اذا تجاوزوا هذا التناقض الذي وقعوا فيه ، وأصبحوا ملكاً لأنفسهم ، وإذا اعتبرنا المجتمع كائناً حياً فإن الكائن لنفسه هو وحده الذي يستطيع أن يتطور أما المجتمعات التي تمارس الازدواجية والتبعية للمجتمعات المتقدمة ، فانها لا تستطيع شيئاً من ذلك لأنها مغزوة ولا تستطيع اتخاذ القرار في مسائلها السياسية والاقتصادية والثقافية وانما ترك أمر ذلك كله للمجتمعات الغازية ويتضح من ذلك أن مجتمعات الغزاة هي التي تتحكم في مصائر المجتمعات المغزوة وبذلك فإن المجتمعات الأخيرة لا تستطيع أن تحرز نوعاً من التقدم وجل ما تحرزه نوع من التطوير الذي يخدم مجتمعات الغزاة

وهنا يجب علينا ألا نخلط بين التحديث والتقدم ، فالتحديث رغم أنه يؤثر على فئات محدودة في المجتمعات المغزوة فإن الذين يجنون ثمراته هي المجتمعات المتقدمة التي تقوم بدور الغزاة ذلك أن المجتمع الذي يركن الى التحديث وحده حتى وان أعطى قدراً من السلطة في اتخاذ القرار لا يمكنه إلا أن يعتمد على غيره من المجتمعات الخارجية وهذا هو مصير أي مجتمع يمارس التبعية .

ولكي نحدد ما اذا كان المجتمع متقدماً أم لا ، فإن علينا أن نتجاوز مقياس معدل الدخل الفردي لأنه مقياس احصائي مضلل وننظر بدلاً منه فيما اذا كان المجتمع يعيش لنفسه أم لا . فإذا كان المجتمع لا يعيش لنفسه فإن أي مقياس آخر

أما يعكس درجة التحديث وحدها، ولعل أبرز تناقض تمارسه المجتمعات ذات الطبيعة المزدوجة يتجلى في علاقتها مع المجتمعات المتقدمة ، وبمجرد إزالة هذا التناقض فإن التطوير الذي تم بواسطة المساعدات التي تخدم مصالح المجتمعات المتقدمة يتحول ليصبح تقدماً يخدم مصالح المجتمعات الناشئة نفسها .

وبناء على ما تقدم فإن حلول الإصلاح المبردة في مثل المجتمعات ذات الطبيعة المزدوجة على الرغم من أنها تخيف بعض الرجعيين من أفراد السلطة المتحكمة فإنها لا تحل التناقضات الخارجية والداخلية في تلك المجتمعات ، ففي معظم الأحيان يكون المحرك خلف هذه الحلول هو المجتمعات المتقدمة التي تقدمها بديلاً للعملية التاريخية وكأنها تقول بذلك لنبدأ عملية الإصلاح قبل أن يبدأ الناس عملية الثورة، ولكي تحقق المجتمعات المتقدمة هذا الهدف فإنها لا تملك خياراً سوى الاستغلال والامتلاك والغزو الاقتصادي والثقافي للمجتمع التابع، وقد تلجأ في بعض الأحيان للغزو العسكري وتقوم الصفوة في المجتمع المقهور بدور الوسيطاء في انجاح مهمة المجتمعات الغازية .

وقبل أن نتقدم لأجل تحليل نظرية العمل الحواري يبدو من المهم أن نشرح باختصار كيف تتكون القيادة الثورية وما النتائج التاريخية والاجتماعية التي تتمخض عن العملية الثورية ونقول في ذلك تتكون في العادة مثل هذه القيادة من رجال كانوا - بشكل أو آخر - ينتمون لطبقة الميسيطرين ولكنهم في لحظة من اللحظات وتحث ظروف تاريخية معينة استطاعوا أن ينبذوا طبقتهم وينتموا الى طبقة المقهورين في مظهر من مظاهر التباسك الحقيقي الذي يتمناه كل فرد ، وسواء كان هذا الانتماء مبنياً على تحليل علمي للواقع أم لا فإنه يمثل موقفاً من مواقف الحسب والالتزام الحقيقي ، ولما كان الانتماء الى المقهورين يستوجب الذهاب اليهم والاتصال بهم يجد هؤلاء انفسهم تلقائياً وقد أصبحوا قادة لأولئك المقهورين . لقد ظهر هؤلاء القادة كانعكاس لتناقضات الطبقة المسيطرة التي أبرزها وضع المقهورين حتى قبل أن يدرك المقهورون حقيقة وضعهم أو حقيقة التناقض القائم بينهم وبين طبقة القاهرةين ، وقد يستمر المقهورون في موقف الامتثال لمجتمع القهر وقد يبدأون نتيجة لظروف تاريخية في رؤية حقيقة وضعهم المقهور ، وفي الحالة الأولى كما قال « فانون » يضع

هؤلاء الرجال أنفسهم خارج ذواتهم أما في الحالة الثانية فإنهم قادرون على تمييز القاهرين وتمييز وضعهم بالنسبة لهم وأيضاً في الحالة الأولى فإنهم يستبطنون القاهرين داخل نفوسهم وبالتالي يمثلون لشخصياتهم المزدوجة التي تستشعر الخوف من الحرية وتفلسف الحياة بطريقة خاطئة أو تعزو الواقع الى قدرية الهية . ان هؤلاء المقهورين في عدم ثقتهم بانفسهم وانسحاقهم . لا يمكنهم أن يبحثوا عن حريتهم بل لعلهم ينظرون الى العصيان على أنه عمل مخالف لمشيئة الله أو رفض غير مشروع للقدر . أما حين يصل الناس الى حالة يعون فيها حقيقة القهر ويستطيعون وضع القاهرين خارج نفوسهم فإنهم يبدأون النضال لتجاوز تناقضاتهم التي قيدتهم زمناً طويلاً . وفي هذه المرحلة يقطعون المسافة بين الضرورة الطبقيّة والرعي الطبقي .

وإذا عدنا الى الحالة الأولى من جديد فسنجد أن القادة الثوريين لسوء الحظ هم الذين سيشكلون التناقض الجديد عند الناس وأما في الحالة الثانية فإن القادة الجدد ينلقون تأييداً عاطفياً وفورياً من الناس، وقد يزيد هذا التأييد خلال العملية الثورية ، ففي هذه المرحلة يدخل القادة في حوار مباشر مع الناس ويستمر هذا الحوار حتى يصل هؤلاء الى السلطة وفي تلك اللحظة سيدرك الناس أنهم قد وصلوا بالفعل اليها .

ان هذه المشاركة لا تقلل من روح النضال أو الشجاعة أو القدرة على الحب أو الجسارة اللازمة للقادة الثوريين . لقد اعتبر فيدل كاسترو وجماعته في مرحلة من المراحل مغامرين غير مسئولين ولكن ذلك لم يقلل من مكانتهم كقادة حواريين استطاعوا أن يميزوا أنفسهم مع الناس الذين تحملوا أقصى درجات العنف في عهد ديكتاتورية « باتستا » ولم يكن الانتماء عملاً سهلاً وإنما كان يتطلب شجاعة من القادة ومقدرة على حب الجماهير الى درجة التضحية من أجلها . لقد كان الأمر يتطلب من القادة أن يعاودوا النضال بعد كل كارثة يحركهم أمل لا يتلاشى وتصميم على تحقيق النصر في المستقبل وإيمان بأن النصر لن يكون من صنع القادة وحدهم بل من صنع القادة مع الشعب أو من صنع الشعب كله قادته وجهوره .

لقد استقطب « فيدل كاسترو » الشعب الكوبي الذي استطاع من خلال

تجربته التاريخية أن يرفض مجتمع القهر ، فقد استطاع الشعب الكوبي أن يجسم القهر ويتخذ لنفسه موقفاً مضاداً له ولم يدخل « كاسترو » في أي تناقض مع الناس ولكن ذلك لا ينفي أنه لم تحدث بعض الخيانات ، فقد أشار « جيفارا » الى شيء من ذلك في « حرب العصابات » ، وهكذا فإنه نظراً لبعض الظروف التاريخية فإن حركة القادة الثوريين نحو الناس إما أن تتخذ مساراً أفقياً حيث يتحد القادة والجهاهير في مواجهة تناقضات القهر واما أن تكون العلاقة متخذة لنفسها شكل مثلث حيث يحتل القادة القمة في موقع تناقضي مع الفاهرين والمفهورين في ذات الوقت . وكما أوضحنا فيما سبق فإن هذا الموقف يكون مفروضاً على القادة وذلك قبل أن يتبين المفهورون حقيقة واقعهم القهري ، ولا شك أن من أقصى الأمور على القادة الثوريين أن يروا أنفسهم واقفين على النقيض من الجهاير ، لذلك فهم يقاومون هذا الاحساس في أنفسهم ولكن من المهم الاعتراف بهذه الحقيقة عندما يلاحظ أن مواقف القادة الثوريين تتناقض مع مواقف الجهاير التي يمثلونها ولا شك أنه كي تحقق الثورة أهدافها فلا بد أن تنضم اليها الجهاير، ولكن عندما يحس القادة ببعد الناس عنهم وعدم الثقة بهم فإنهم يعتبرون هذا السلوك منقصة من جانب الشعب وذلك ما يجعلهم يدركون في مثل هذه الحالات العجز الكامن في ضباط الجهاير في تلك المرحلة ، وفي مثل هذه الحال فإنهم قد يلجأون الى نفس الأساليب التي يلجأ اليها الفاهرون لاحكام سلطتهم. وهكذا يخلص القادة الى أنه من غير الممكن الدخول مع الناس في علاقة حوارية قبل السيطرة على السلطة ولذلك فهم يلجأون الى نظرية العمل الاحواري حيث يستخدمون نفس أساليب الفاهرين في التبشير والاستغلال والغزو الثقافي باتباعهم هذه الطريق فإنهم سيفشلون في تحقيق الثورة واذا أصابوا بعض النجاح فإنه لن يكون نجاحاً حقيقياً .

ان دور القادة الثوريين في جميع الظروف وبصفة خاصة في الظروف المذكورة سابقاً يكمن في أن يفهموا تماماً الأسباب التي تؤدي الى عدم الثقة بهم من جانب الناس ويحاولوا أن يجدوا طرقاً أخرى للوصول اليهم بل ومساعدتهم في رؤية ظروف القهر التي تحيط بهم ذلك أن الضمير المفهور يعاني بالضرورة احساساً بالازدواجية والخوف لقد قال « جيفارا » في مذكراته عن « بوليفيا » مشيراً الى عدم مشاركة الفلاحين في الثورة .

« لقد كان حشد الفلاحين غير ممكن إلا بالوسائل الاعلامية التي كانت تزعمنا فلم يكونوا على درجة من السرعة أو الكفاءة ، لذلك ، فقد كان موقفهم محايداً ، وعلى الرغم من أن الفلاحين لم يعودوا يخافوننا بل وأصبحوا يعجبون بنا فإنهم لم يظهر وا أي نوع من التعاون أو حتى اذا أظهر وه فقد كان بطيئاً وصبوراً » وهكذا فقد أوضح كفاءتهم ، غير أن سلوك الفلاح الذي يشجع القاهر على ممارسة الغزو الثقافي لا بد أن يستفز الثوريين لاستنباط نظرية أخرى في العمل الثوري ، فالذي يميز القادة الثوريين من القاهرين ليس فقط أهدافهم بل الوسائل التي يستخدمونها ، فإذا تصرفوا بنفس الطريقة أصبحت أهدافهم واحدة وإذا كان طرح مشكلة الواقع على الرجال يتناقض مع أهداف القاهرين فيجب الا يكون الأمر كذلك بالنسبة للقادة الثوريين . ولنتوقف الآن لنحلل النظرية الثورية للحوار الثقافي لتفهم العناصر التي تكونها . .

التعاون :

لقد رأينا في نظرية العمل اللاحواري أن الامتلاك أو الغزو بصفتها حجر الأساس في تلك النظرية يتضمنان وجود فاعل وهو الغازي - ومفعول وهو الذي يحول هذا الغازي الى مجرد شيء ، وبمعكس ذلك ففي نظرية العمل الحواري فإن الفاعلين يلتفون جميعاً في علاقة تعاونية من أجل تطوير العالم وإذا كان « الأنا » اللاحوارية تحول « الأنثى » الى مجرد شيء فإن « الأنا » الحوارية كما يقول « مارتن بوبر » تدرك أن « الأنثى » قد أدركت واقعها وأن المحتتم أن تدخل مع « الأنا » في علاقة جدلية من أجل تغيير العالم ، وهكذا فلا تحتل نظرية العمل الحواري وجود جماعة يقتصر دورها على السيطرة وتستخدم في ذلك حقاً غير شرعي في الامتلاك كما لا تحتل وجود آخرين يقتصر دورهم على الانقهار وإنما تتضمن هذه النظرية رجالاً لهم هدف واحد يسرون اليه ، هو تطوير العالم بعد تمييزه ، وإذا لم يستطع هؤلاء الرجال لاسباب تاريخية أن يقوموا بدورهم المناط بهم فإن طرح واقعهم عليهم كمشكلة قد يساعد على تبصيرهم بهذا الدور ، ولا يعني ما تقدم أنه في نظرية العمل الحواري ينتفي دور القادة الثوريين بل يعني ما ذهبنا اليه أنه لا يحق هؤلاء القادة برغم أهمية دورهم والحاجة اليهم أن يمتلكوا الناس أو يوجهوهم بطريقة عمية نحو

الخلاص لأن مثل هذا الخلاص سيكون مجرد منحة من القادة الى الناس وبذلك يتحول الناس من مشاركين في العمل التحريري الى مجرد موضوع له . وبذلك فإن التعاون كركيزة من ركائز العمل الحواري لا يمكن أن يتم الا حين يتشارك الجميع برغم اختلاف اختصاصاتهم وأهميتهم . ولا تتم هذه المشاركة الا بالحوار لأنه في نظرية العمل الحواري لا يوجد هنالك امتلاك باسم الثورة، فالحوار لا يؤدي الى الاستغلال أو التذجين أو الشعارات، ولا يعني ذلك أن نظرية العمل الحواري لا تقود الى شيء أو أن الرجل الحواري ليست لديه فكرة واضحة عما يريد أو أنه لا يعي الأهداف التي نذر نفسه لها ، ذلك أن التزام القادة الثوريين هو في نفس الوقت التزام نحو الحرية ولأجل هذا الالتزام فإن هؤلاء القادة لا يجترئون على امتلاك الناس وإنما يسعون الى الالتئام معهم من أجل تحقيق أهداف التحرير ، فإذا تحول هذا الالتئام الى نوع من الغزو لم يعد التئاماً وإنما أصبح ضرباً من الاستسلام للمنتصر ، ذلك أن الالتئام الحقيقي هو توافق حر للاختيارات ولا يمكن له أن يتحقق دون اتصال بين الرجال الذين يتوسطهم الواقع .

إذاً فإن التعاون يقود المجتمع الحواري الى النظر في الواقع لمواجهة تحدياته ، ذلك أن مواجهة هذه التحديات هي مسئولية المجتمع الحواري لأجل تطوير الواقع ، ودعني أؤكد أن ما أقصده بطرح الحقيقة كمشكلة لا يعني مجرد رفع الشعارات بل يعني التحليل الناقد للواقع وبهذه الطريقة يستطيع العمل الحواري كشف العالم، وهذا النوع من العمل يختلف عن الممارسات التوجيهية التي يقوم بها القاهرون من أجل مزيد من التضليل ، فليس في استطاعة أحد أن يكشف عالم شخص آخر، وقد يكون بمقدور أحد أن يقوم بعملية الريادة في الكشف عن حقيقة الواقع ولكن من المفروض أيضاً أن تشاركه الجماعة أيضاً في القدرة على الكشف، فتكتاف الجماعة لا يصبح ممكناً الا حين تستطيع الجماعة أن تكشف حقيقة الواقع وحقيقة نفسها من خلال الممارسة ، فمثل هذا التكتاف يتطابق مع الثقة التي يضعها الناس في أنفسهم وفي قيادتهم حين يلمسون صدقها. ومن المحتم أن تبادلهم القيادة ثقة بثقة ، غير أن مثل هذه الثقة يجب ألا تتسم بالسذاجة ، إذ يجب أن يتقن القادة في قدرات الجماهير الكامنة وبذلك لا يعاملونهم كأشياء وإنما يعاملونهم كمشاركين في

عملية التحرير ولكن عليهم دائماً الا يثقوا في السلوك الازدواجي أو الاستبداد المخلب للمهر عند المهورين ، فعندما يؤكد « جيفارا » أن العمل الثوري يتسم بعدم الثقة فإنه لا ينفي عنصراً أساسياً في نظرية العمل الحواري ولكنه يحاول أن يكون واقعياً ، وعلى الرغم من أن الثقة هي أساس الحوار فإنها ليست مقدمة لازمة له وإنما هي تنشأ حين يتعامل الرجال كمشاركين في تعرية العالم من أجل تطويره ، وما ظل القاهر المستبد في داخل المهورين يمارس نفوذاً أقوى فإن خوفهم قد يؤدي بهم الى نبذ القادة الثوريين بدل أن يبدؤوا ظروف قهرهم وهناك يتحتم على القادة أن يدركوا مثل هذا الاحتمال ، وقد أكدت حلقات « جيفارا » على هذه المخاطر ، فهي لم تؤكد الهروب فقط بل وضعت احتمالات الخيانة أيضاً ، فهو يؤيد في تلك الوثائق ضرورة معاقبة المارقين للمحافظة على النظام والتأسك بين أفراد الجماعة الثورية ، ولقد حلل « جيفارا » بعض العوامل التي تؤدي الى المروق على الجماعة ومن بين هذه العوامل ولعله أهمها هو الاحساس العدائي غير المبني على أسس واضحة ولعل في إشارة « جيفارا » في قسم آخر من وثائقه الى وجوده في مجتمع فلاحين في « سيرا مايسترا » بصفته طبيباً لا محارب عصابات ما يتناسب مع مناقشتنا لموضوع التعاون فهو يقول :

« نتيجة للاتصال اليومي بأولئك الناس من أجل بحث مشاكلهم أصبحنا مقتنعين جداً بالحاجة الماسة الى تغيير شامل في أسلوب حياة شعبنا ، ولذلك فقد أصبحت الحاجة الى اصلاح المجتمع الزراعي واضحة جداً بالنسبة لنا ، فلقد توقفت الرغبة في الاتصال بالناس عن أن تكون مجرد نظرية لتصبح جزءاً من حقيقتنا .

لقد أخذ رجال العصابات والفلاحون ينيثون كقوة واحدة متماسكة وبرغم ذلك فلا يستطيع أحد أن يقول متى في هذا النضال الطويل قد أصبحت الأفكار حقائق وأصبحنا جزءاً من المجتمع الزراعي ، وفيما يختص بي فإن الاتصال بمرضاي في « سيرا » أثار في نفسي قوة كامنة ذات قيمة مختلفة فلن يستطيع الفقراء المقاسون المخلصون من سكان « سيرا » أن يتصوروا أي اسهام قاموا به في ايدولوجية ثورتنا »

فلنلاحظ هنا تأكيد « جيفارا » على ضرورة الالتحام مع الناس وذلك من أجل أحداث التغيير ، فمن خلال الحوار مع الفلاحين استطاع « جيفارا » أن يحدد ملامح نضاله الثوري ، ولعل ما لم يقله « جيفارا » - ربما بسبب التواضع - هو أن تواضعه وحبّه للناس هما اللذان جعلتا التلاحم معهم ممكناً ، وبذلك تحول هذا الالتحام الى نوع من التعاون . ولاحظ أن « جيفارا » الذي لم يذهب الى « سيرامايسترا » مع « فيدل كاسترو » وبقية رفقائه كجماعة من الشباب الناقمين بحثاً عن المغامرة يعترف بأن التلاحم بالناس توقف عن أن يكون مجرد فكرة نظرية وأصبح جزءاً من تكوينه الشخصي . انه يؤكد أنه منذ تلك اللحظة أصبح الفلاحون موحين لايدلوجية حرب العصابات الثورية التي قادها .

لقد استطاع « جيفارا » بأسلوبه الذي لا يخطئه أحد أن يكشف عن طاقة الحب الكامنة في قلبه والتي تجسدت في اتصاله بالفلاحين، ومن ذلك تنبثق شهادته لأعمال رجل آخر وطن نفسه على الحب وهو « كاميلو توريس » قس العصابات ، فبدون العمل الجماعي الذي كرس التعاون الصادق بين الكوبيين ما كان من الممكن أن يتجاوز الكوبيون وجودهم كأشياء وإنما كانوا سيظلون هدفاً لحركة رجال « سيرامايسترا » الثورية وكأهداف لهذه الثورة ما كان من الممكن ان يلتصقوا ، وفي أحسن حال كان سيكون التلاحمهم تكريساً للقهر ، ففي نظرية العمل الحوارى ليست هنالك مرحلة يستغنى فيها العمل الثوري عن الاتصال بالجماهير ، والاتصال في العمل الثوري يؤدي بالضرورة الى التعاون الذي يوحد القادة والجماهير على النحو الذي شرحه « جيفارا » ، ويتكرس هذا التوحيد فقط عندما تكون أهداف الثورة انسانية قوامها الاتصال والحب والتواضع من أجل تحقيق حرية الجميع ، فالحب الثوري هو الذي يخلق الحياة، ولأجل أن تخلق الحياة فلا بد أن يمنع بعض الناس من السيطرة على الحياة ، فبالإضافة الى علاقة الحياة والموت التي تحكم الكون فإن هنالك ظاهرة غير طبيعية وهي ظاهرة الموت الحى، والتي هي تعبير عن عدم تحقق الحياة على النحو الصحيح .

وليس مهماً هنا أن نوضح عن طريق الاحصاء كم من البرازيليين والامريكيين

اللاتينيين يعيشون كجثث صامتة أو ظلال بشرية ، فكم من رجال ونساء وأطفال
فقدوا الآمال ووقعوا ضحايا لحرب خفية لا تنتهي أخضعت الرجال للسل وأخضعت
الأطفال للأمراض القتالة مما يسميها القاهرون الأمراض القارية .

يقول الأب « تشينو » في احتمال مقاومة مثل هذا الواقع .

« كثير من القساوسة الذين يحضرون المجلس وغيرهم من المثقفين يخشون
ضرورة أن تصدر احتجاجاً عاطفياً لادانة الفقر وعدم العدالة دون أن نتعمق في
تحليل الأسباب التي أدت الى ذلك حتى ندين النظام الذي كرس عدم العدالة
والفقر » .

الوحدة من أجل التحرير : -

بينما يلجأ المستلطون في نظرية العمل اللاخواري الى سياسة فرق تسد من
أجل احكام القهر فإن دور القادة في نظرية العمل الخواري يحتم عليهم أن يعملوا
دون كلل لتحقيق الوحدة بين المجهورين من جهة وبينهم وبين الناس من جهة
أخرى وذلك من أجل ان يتمكنوا من تحقيق هدف التحرير ، ولا يمكن أن يتحقق
هذا المستوى دون ممارسة ، وإذا كان دور المستلطين سهلاً في القيام بمهامهم فليس
هذا هو الشأن مع القادة الثوريين ، فالمستلطون يستطيعون استخدام سلاح القوة
وذلك ما لا يستطيع أن يستخدمه الثوريون والمستلطون يستطيعون تنظيم أنفسهم
برغم الخلافات التي تحدث أحياناً والتي يمكن مجابهتها بالوحدة عند أي تهديد
والثوريون لا يستطيعون أن يسيروا دون الجماهير وهذا ما يجعل عقبة التنظيم من
أهم العقبات التي تصادفهم ، فمن غير المعقول أن تسمح الصفوة المستلطة للقادة
الثوريين بتنظيم أنفسهم ، فمما لا يتفق مع أهداف الصفوة المستلطة وسياستها
السماح لقادة الثورة بتنظيم أنفسهم لأن من طبيعة هذه الصفوة أن تبقى على الجماهير
مقسمة وبالعكس من ذلك فإن وحدة القادة الثوريين لا تكتمل الا بوحدة الجماهير
والتصاقها بهم . وإذا كانت وحدة الصفوة تكسب وجودها من التناقض القائم بينها
وبين الجماهير فإن وحدة القادة الثوريين على العكس من ذلك تكتمل بإزالة مثل هذا
التناقض . فالموقف الواضح للقهر ينبنى على وجود نوع من الازدواج في داخل

المفهورين لتأكيد خوفهم وقلقهم وذلك ما يعوق أي عمل وحدوي من أجل تحقيق الحرية ويبقى على الظروف التي تكرر حقيقة القهر .

ولا شك أن السيطرة بطبيعتها مقسمة لأنها تجعل الانسان يلتزم مع نوع من الواقع يعمه الزيف ولا يستطيع الفكك منه لما يحفل به هذا الزيف من عناصر التغريب التي تساعد على تقبل القوة الوهمية التي تكرر هذا الوضع ، وهذا الازدواج يتم عن طريق تقسيم الأنا الى جزئين ، جزء يمثل الواقع القهر وآخر يظل خارج واقع الانسان ممثلاً لتلك القوة التي يتوهم أنه لا يستطيع هارداً . وهكذا يتقسم الانسان بين ماضٍ يشابه مع الحاضر والمستقبل ولا أمل عنده فهو في ظل هذا الواقع لا يستطيع أن يرى نفسه في صيرورة متصلة ولذلك فهو لا يفكر في مستقبل يبنيه مع الجماعة وبمجرد أن يخترق هذه الحواجز فإنه ينبثق مؤكداً ذاته في اطار المجموع ومستهدفاً تغيير الواقع الذي ظل يكبله وفي هذه اللحظة وحدها يصبح فرداً حقيقياً .

إن التفرقة هي عمل من صميم أيولوجية القهر وأما الوحدة فهي عمل ثقافي يتأتى للمفهورين بموجبه ان يعرفوا كيف ؟ ولماذا ؟ وهذا ما يجعل العمل من أجل الجماهير ليس مجرد شعار بل هو عمل من أجل انبثاق الشخصية الكاملة للفرد والمجموع وذلك أن هدف العمل الحواري من أجل الحرية لا يعني تحرير الجماهير من واقع معين لتقييدهم بواقع آخر، وإنما يعني انطلاق هذه الجماهير من أجل تغيير الوضع الغير العادل الذي ظلوا يمارسونه ، وما دامت وحدة المفهورين تتطلب التماسك بينهم بصرف النظر عن واقعهم فإن مثل هذه الوحدة تحتاج بالضرورة الى وعي طبقي ويعني ذلك بالتالي أن الانغماس في القهر الذي ظل ممارساً ضد فلاحى أمريكا اللاتينية يستوجب مرحلة من الاحساس الفردي بالقهر قبل أن يتجسد مثل هذا الاحساس في عمل جماعي . ولو أردنا على سبيل المثال أن نقول لفلاح أوروبى انه فرد له كينونة خاصة به فربما بدا له هذا الأمر غريباً ولكن مثل هذا القول لا يبدو غريباً عند فلاحى أمريكا اللاتينية الذين يعيشون في عالم لا يستطيعون أن يميزوا فيه أنفسهم عن الحيوانات والاشجار ، ورجال مثل هؤلاء لا بد لهم أن يكتشفوا

أنفسهم كأفراد حبل بينهم وبين الكينونة ومعنى أن يكتشفوا أنفسهم هو أن يميزوها أولاً « كبيدرو » و « انتونيو » و « جوسيفا » لأن هذا الاكتشاف سيجعلهم يميزون حقيقة معانٍ أخرى كالعالم والرجال والثقافة والأشجار والعمل والحيوانات مما يعني أنهم سيبدأون في تمييز أنفسهم على نحو جديد . فالفلاحون في هذه المرحلة الجديدة سيبدأون إدراك دورهم الجديد كمغيرين للعالم في مقابل حقيقتهم الضائعة في السابق وذلك عن طريق عملهم المبدع، وسيدركون في هذه اللحظة أنهم كرجال لا يستطيعون أن يعيشوا مرة أخرى كأشياء يمتلكها الآخرون، وهكذا يتجاوزون مرحلة الاحساس أنهم أفراد مقهورون إلى مرحلة الاحساس الطبقي بهذه الحقيقة . ولذلك فإن أي محاولة لتوحيد الجماهير عن طريق الشعارات تؤدي في النهاية إلى تجمع بشري يمارس دوراً ميكانيكياً دون أن يعي أهدافه ، فوحدة المقهورين الحقيقية لا بد أن تتم على المستوى الانساني وليس على مستوى الأشياء ولا بد لها أن تتم في إطار من الوعي المتبادل بين القاعدة والقمة ولا بد للجماهير كي تتحد من أن تقطع حبل الصرة الذي يشدهم إلى السحر والخرافة التي هي من مقومات عالم القهر وتستعويض عنه بالعمل الثقافي ذي الطبيعة التاريخية والواقعية لأنه هو الذي يحقق الوحدة في إطار البناء الاجتماعي .

ومما يلاحظ أن الفلاحين يعيشون دائماً في إطار محدود تمارس فيه القهر سلطة محدودة، أما في المدن فإن سلطة القهر واسعة ومعقدة وتمارسها أطراف كثيرة، ذلك أن القهر في القرية يمارسه شخص ما يستجمع في يده سلطة القهر ، أما في المدن فإن الناس يخضعون لقهر لا يستطيعون أن ينسبوه لشخص ما، وفي كلا الحالتين فإن سلطة القهر لا تكون واضحة للجماهير ، ففي القرية فإن قرب هذه السلطة من الجماهير يحول دون رؤيتها لذلك فإن العمل الثقافي يتحتم عليه أن يتخذ هدفاً واحداً هو أن يوضح للجماهير في أي موقع من المواقع القهر الذي يمارس ضدهم سواء كان هذا القهر واضحاً أم لا، ويستدعي ذلك أن يتجنب هذا العمل الأسلوب الخطابي غير المجدي وكذلك الأسلوب الميكانيكي الخادع وأن يحول دون أي عمل تمارسه الصفوة المتسلطة لتصرف الجماهير عن توحيد أنفسهم من أجل تحقيق أهدافها في الحرية والتغيير .

التنظيم

لقد وضح لنا في نظرية العمل اللاحواري ان الاستغلال عنصر أساسي في عملية الامتلاك أو الغزو أما في نظرية العمل الحواري فإن التنظيم هو الرد الحاسم على نزعة الاستغلال ، وعلى الرغم من أن التنظيم يرتبط دائماً بالوحدة فإنه في حقيقته تطور طبيعي لها ، لذلك فإن سعى القادة لتحقيق الوحدة هو في حقيقته سعي من أجل التنظيم الذي تتحقق به أهداف الحرية ، وهو دليل على التواضع والشجاعة والمشاركة في العمل الجماعي حيث يتفادى الناس به الوقوع في أخطاء العمل اللاحواري، وهذا الدليل قد يختلف أسلوبه بحسب الظروف التاريخية التي يعيشها الشعب ولكنه في جميع الأحوال فهو عنصر لا غنى عنه في العمل الثوري . وكما نحدد الاجابة على كيف ولماذا فلا بد أن يكون هنالك وعي ناقد بالواقع التاريخي من خلال مفهوم الجماعة لهذا الواقع، وبعبارة أخرى لا بد من معرفة التناقضات التي تواجه المجتمع وعناصرها الأساسية ، فهذه الأبعاد ذات طبيعة تاريخية وحوارية ولذلك فهي جدلية بطبيعتها ولا بد ان تستمد من واقع المجتمع بمعنى أنه لا يصح استيرادها . فالشاهد أو الدليل في نظرية العمل الحواري لا يمكن له أن يجرد أو يموه لأنه ان حدث الاتهام فقد تغرب المجتمع . واستناداً على ما ذكرناه فإن الشاهد في نظرية العمل الحواري من أهم المظاهر التعليمية والثقافية في العمل الثوري .

ومن أهم العناصر الدالة على العمل الثوري والتي لا تتغير بحسب الظروف التاريخية الالتزام في القول والفعل والشجاعة التي تتطلب مواجهة المخاطر والرايكية-ولا نعني بها المذهبية- التي تتطلب من النموذج والذين يتبعونه زيادة في العمل بالاضافة الى الحب والثقة بالناس .

ولا بد أن نضع في الحسبان أن النماذج الثورية الصادقة تضع في اعتبارها دائماً احتمال الاخفاق في كسب الجماهير الى صفها، ولكن يجب ألا يؤدي ذلك الى التقاعس لأن عملها ذو طبيعة ديناميكية، وإذا كان العمل اللاخواري يحيد الجماهير ليسيطرته عليها فإن العمل الخواري يقضي على الاستغلال بالتنظيم وإذا كان الاستغلال في العمل اللاخواري يخدم أغراض الامتلاك فإن الجرأة والحب اللذين يتميز بهما العمل الخواري يخدمان أهداف التنظيم، وبالنسبة للصفوة المتسلطة فإن التنظيم عندها يعني تنظيم مصالحها وأما بالنسبة للقادة الثوريين فإن التنظيم يعني بالنسبة لهم تنظيم أنفسهم مع الناس، ففي الحالة الأولى تستخدم الصفوة المتسلطة كل امكانياتها للسيطرة والتجريد وفي الحالة الثانية فإن التنظيم هو في حد ذاته ممارسة للحرية ولكن برغم ذلك فيجب ان نفرق بين التنظيم وأعداد الكتائب والمليشيات حقاً انه بدون قيادة فإن أهداف التنظيم لا يمكن أن تتحقق ولكن هذه الحقيقة في ذاتها لا تبرر معاملة الناس كأشياء، فقد عانى الناس كثيراً من الاستلاب في سنين القهر فلا يجوز ان يستغلهم القادة الثوريون من جديد لأنهم بهذا الاستغلال يدل أن يشيعوا الوعي والاحساس في قلوبهم فإنهم في الواقع يهزمون أهداف التنظيم وأهمها تحقيق الحرية .

إذا فإن التنظيم هو عملية يبدأ من خلالها القادة الثوريون تعليم الناس معرفة العالم على الرغم من أنهم لا يقولون كلمتهم الخاصة في ذلك . فهذا الأسلوب هو الصحيح لأنه يتسم بالنزعة الخوارية حيث لا تسمع كلمة القادة وحدها وإنما تسمع كلمة الجماهير الى جانبها ، أما القادة الذين يرفضون مبدأ الحوار ويلجأون الى فرض قراراتهم فإنهم في الواقع لا ينظمون الناس بل هم في حقيقتهم يمارسون قهرهم .

ولا يعني بالطبع ما ذكرناه من أن القادة لا يملكون حق فرض كلمتهم على الناس أن يتركوا الجبل على الغارب ليتيحوا بذلك الفرصة أمام أعداء الثورة كي يمارسوا دورهم القهري الذي اعتادوا عليه فنظرية العمل الحواري تعارض التسلط والتسيب وهي في ذات الوقت تؤكد الحزم والحرية لأنه ليست هنالك حرية بدون سلطة وربما كانت هناك سلطة بدون حرية وعلى وجه الإجمال فليست هنالك حرية بدون سلطة وفي نفس الوقت فليست هنالك سلطة بدون حرية فكل أنواع الحرية قد تتحول في بعض الظروف إلى سلطة، وهنا يجب ألا نفرق بين الحرية والسلطة بل ينبغي معاملتهما في علاقة متصلة مع بعضهما بعضاً . ولا تتكرس السلطة بمجرد امتلاك الحكم وإنما تتكرس عندما تجمع الناس خوفاً وتفويضهم سلطاتها أما إذا تحول الحكم من فئة إلى فئة أو إذا فرض على الغالبية فإنه سرعان ما يتحول إلى نوع من التسلط لأن السلطة الحققة هي التي لا تقع في تناقض المواجهة مع الحرية لأنها في حقيقتها حرية قد تحولت إلى سلطة. وكما لا تستطيع السلطة الحققة أن توجد بدون حرية فإن التسلط لا يمكن له أن يبسط نفوذه إلا إذا أنكر على الناس حرياتهم ، وإذا ففي نظرية العمل الحواري فإن التنظيم يحتاج إلى السلطة حتى لا يكون تسلطاً ويحتاج إلى الحرية حتى لا يكون فوضى . إنه عملية تعليمية عالية يمارس فيها القادة والناس معاً السلطة والحرية التي تمكنهم من تغيير العالم الذي يحيط بهم .

التألف الثقافي

إن العمل الثقافي هو في جميع الأحوال عمل منظم يستهدف البيئة الاجتماعية إما بغرض المحافظة عليها وإما بغرض تطويرها وكأي عمل منظم وهادف فإن له نظريته التي تحدد أهدافه وتوضح الوسائل التي يتبعها إما أن يخدم العمل الثقافي أهداف السيطرة وإما أن يخدم أهداف التحرير. وبما أن هذين النوعين من العمل يختلفان في نتائجهما فإنهما يختلفان علاقة جدلية قائمة على الدوام والتغير، فلكي يكون التنظيم الاجتماعي فلا بد له من أن يصير ومعنى آخر فإن الصيرورة هي التي يحقق بها المجتمع الاستمرارية بحسب المفهوم البرغسوني .

وعلى وجه العموم فإن العمل الثقافي الحواري لا يمكن له أن يتخلى عن العلاقة الجدلية بين الدوام والتغير لأن التخلي عن هذه العلاقة معناه التخلي عن الرجال والمجتمع بصفة عامة . إن العمل الحواري يستهدف اجتواء المتناقضات وبذلك يتمكن من تحقيق حرية الرجال . أما نظرية العمل اللاحواري فإنها تبقى على هذه المتناقضات لكي تحول دون تحقيق التطوير اللازم لتحرير الرجال ومعنى آخر فإن نظرية العمل اللاحواري تحاول أن تبقى على العناصر التي تكرر السيطرة في النظام الاجتماعي ، وإذا كان المستلطون يرفضون التغير الذي يهدد سلطتهم فإنهم يقبلون بعض الإصلاحات التي لا تهدد سلطتهم في القهر وبذلك يتأتى لهم أن يحققوا الامتلاك والتفرقة والاستغلال والغزو الثقافي . أنه أسلوب مصطنع لا يقبله العمل

الحواري لأن العمل الحواري يستهدف التحرير ، ففي نظرية الغزو الثقافي يستمد الممثلون نظريات أدوارهم من قيمهم وأيدلوجياتهم الخاصة حيث يبدأون من عالمهم الخاص يغزون به عالم المقهورين ، وأما في نظرية التآلف الثقافي فإن الممثلين الذين يأتون من عالم مختلف ويدخلون عالم الجماهير لا يدخلونه كغزاة أو معلمين أو مبشرين بل يدخلونه كمعلمين مهمتهم تتركز في أن يعرفوا عن الناس ، كذلك في الغزو الثقافي لا يحتاج الممثلون إلى الاتصال بالجماهير ، وقد يكتفون بالوسائل التقنية يفرضون بها أنفسهم على الناس الذين يقومون بدور المشاهد فحسب. أما في نظرية التآلف الثقافي فإن الممثلين يندمجون مع الناس ليصبحوا مشاركين هم في العمل الذين يقومون به سويًا تجاه العالم ومرة أخرى في الغزو الثقافي يبقى العالم والناس مجرد أشياء يتعامل بها الممثلون، وأما في التآلف الثقافي فليس هنالك مشاهدون لأن عمل الممثلين إنما يتمثل في تطوير الواقع لأجل تحرير الرجال. ويبدو من ذلك أن التآلف الثقافي هو ضرب من العمل يواجه الثقافة ذاتها بوصفه المقوم الذي يصون عناصرها ، فالعمل الثقافي كعمل تاريخي هو وسيلة يتفوق بها الناس على ثقافة السيطرة ومن هذا المفهوم فإن أي ثورة حقيقية هي في واقعها ثورة ثقافية .

إن البحث عن الموضوعات المحركة أو الموضوعات ذات المغزى التي وصفناها في الفصل الثالث تمثل نقطة البدء في عملية التآلف الثقافي . حقاً أنه لا يمكن تجزئة هذه العملية إلى مرحلتين أحدهما تختص بالبحث والموضوع والأخرى تختص بالعمل المؤدي إلى التآلف الثقافي ، فهذه التجزئة تعني أن هنالك مرحلة يخضع فيها الناس للبحث والتحليل بواسطة المحللين وكأنهم أشياء، وذلك ما يتفق مع نظرية العمل اللاحواري، وقد تؤدي هذه التجزئة إلى نتيجة ساذجة فحواها أن العمل من أجل التحرير يتبع الغزو الثقافي بالضرورة ولكن مثل هذه التجزئة لا مجال لها في العمل الحواري ، فالذين يقومون بتحديد الموضوعات أو النظرية في العمل الحواري ليسوا هم الباحثين فحسب بل يشاركونهم في ذلك الرجال الذين يخضع عالمهم للبحث . إن البحث كمؤلف ثقافي يشيع جواً من الإبداع يغذي مراحل العمل اللاحقة ولا يمكن لهذا الجو أن يوجد في إطار الغزو الثقافي الذي بتغريبه للرجال يقتل فيهم ملكة الإبداع ومحاسنه ويتركهم بلا أمل خائفين من المغامرة التي لا يمكن أن يتحقق الإبداع

بدونها . كذلك فإن الذين يخضعون للغزو مهما كان مستواهم فانهم لا يمكن أن يتجاوزوا النماذج التي حددها لهم الغزاة ، وأما في إطار التآلف الثقافي فليس هنالك غزاة وبالتالي فليس هنالك نماذج مفروضة وبدلاً من ذلك فإن هنالك رجالاً يقدمون تحليلاً ناقداً للواقع مقروناً بالعمل وبذلك يشاركون كفاعلين في العملية التاريخية ، وبدل ان يتبع الرجال نماذج من العمل قد حددت لهم فيما قبل فإن القادة والجهاهير معاً يسبرون نحو هدف مشترك ، وفي هذا التآلف الثقافي يولد القادة والجهاهير في إطار جديد من المعرفة والعمل . فمعرفة الثقافة المغربية يؤدي الى تطوير ثقافة تحرر الانسان من غربته وبقدر ما يحسن مستوى فهم القادة للناس يكون أثرهم في تحسين مستوى الجهاهير .

وهكذا في إطار التآلف الثقافي وفي إطاره وحده يمكن أن تحل مشكلة التناقض بين نظرة القادة للعالم ونظرة الناس له ، فالتآلف الثقافي لا يرفض الاختلاف في وجهات النظر لأنه مبني على مثل هذا الاختلاف ولكنه يرفض الغزو الثقافي الذي تمارسه فئة على فئة ويؤيد الدعم الذي تقدمه فئة الى فئة . وينبغي على القادة الثوريين أن يتجنبوا تنظيم أنفسهم بمعزل عن الجماهير وكثيراً ما يرتكب القادة أخطاء وكثيراً ما تحوّلهم حساباتهم عندما لا يأخذون رأي الناس في العالم مأخذ الجد ، فمثل هذا الرأي يتضمن اتهامات الناس وشكوكهم وآمالهم وطريقتهم في النظر الى القادة بل وطريقتهم في النظر الى أنفسهم وإلى القاهرين وهم في هذا الرأي يعبرون عن معتقداتهم الدينية وقدريتهم وطاقات احتمالهم وليس بالامكان رؤية أي عنصر من هذه العناصر بمعزل عن الآخر لأن الرؤية لا بد لها أن تكون شاملة وإذا كان المستلظ يهيمه أن يرى هذه الاشياء مجتمعة من أجل الاستعانة بها في احكام سيطرته فإن القادة الثوريين يسعون لمعرفة لتحقيق التآلف الثقافي، ولا يعني التآلف لمجرد انه تآلف أن أهداف العمل الثوري يجب ان تكون مقصورة على أهداف وانطباعات الجماهير عن العالم لأنه ان اقتصر الأمر على ذلك فمعناه أن دور القادة الثوريين سيحد عند هذه الرؤية . فإذا كان الغزو الثقافي مرفوضاً من قبل القادة فإن الاستسلام المجرد لتطلعات الناس مرفوض أيضاً .

ولكي أكون واضحاً ، في بعض الأحيان لا يتجاوز طموح الناس رغباتهم في

زيادة مرتباتهم ويمكن للقادة في مثل هذه الحال أن يرتكبوا خطأين . اما ان يقصروا عملهم على تحقيق هذا المطلب وإما أن يتجاوزوا هذا المطلب ويستعصوا عنه بأمر آخر لم يشغل أذهان الناس في هذه المرحلة . ففي الحالة الأولى ينصاع القادة لرغبات الناس وفي الحالة الثانية فإنهم يمارسون الغزو الثقافي لعدم احترامهم لرغبات الجماهير .

أما الحل فيمكن في اعتراف القادة بهذا المطلب أولاً ثم يطرحونه كمشكلة أمام الجماهير، وبعملهم هذا فإنهم يطرحون موقفاً تاريخياً يمثل طلب زيادة الأجور بعداً من أبعاده وسوف يتضح فيما بعد ان مطلب زيادة الأجور لن يكون هو الحل وحده وسيصبح الحل ما قرره قادة العالم الثالث من أنه ما لم يصبح العمال هم أصحاب العمل الحقيقيين فإن اي وسيلة للاصلاح ستكون عديمة الجدوى اذ يجب أن يكون العمال أصحاب العمل وليس بائعيه لأن أي بيع أو شراء للعمل انما هو عبودية مقنعة ، فإثارة الوعي بضرورة أن يصبح العامل مالكا لعمله وأن العمل هو جزء من العامل وأن الانسان لا يمكن له أن يباع أو يبيع نفسه يقوده خطوة الى الامام أبعد من الحلول المهدنة ، فالانشغال بالتطوير الحقيقي للواقع يؤدي الى تطوير الرجال انسانياً .

وبما أنه في نظرية العمل اللاخواري يخدم الغزو الثقافي أهداف الاستغلال التي تخدم بدورها أهداف القهر والتسلط فإن المقهورين من أجل أن يتحرروا فإنهم يحتاجون أيضاً الى نظرية في العمل التحريري ، وبما أن القاهرين يتوسعون في نظرية العمل القهري دون الاستعانة بالمقهورين فإن المقهورين لا يمكن لهم في ظل الانسحاق واستبطان القهر أن يؤلفوا نظريتهم في العمل التحرري ما لم يحتكوا بالقادة لأنه من خلال هذا الاحتكاك والمشاركة في العمل تتجسد أبعاد النظرية التي يحققون بها حريتهم ويتمكنون بها من تغيير العالم .

الفهرست

- ١ - مقدمة المترجم ٧
- ٢ - مقدمة الطبعة الانجليزية ١٣
- ٣ - مقدمة المؤلف ١٩
- ٤ - الفصل الأول - تعليم المقهورين ٢٥
- ٥ - الفصل الثاني - مفهوم التعليم البنكي ومفهوم التعليم الحواري ٤٩
- ٦ - الفصل الثالث - برنامج التعليم الحواري ٦٥
- ٧ - الفصل الرابع - نظرية القهر ونظرية الحوار الثوري ٩١

هذا الكتاب

لقد توطدت شهرة هذا الكتاب في المجالات التربوية على انه يقدم نظرية جديدة في اساليب التعليم وبخاصة تعليم الكبار ، ولكن المؤلف يحدد فيه المصطلح الرئيسية في فلسفة الثورة ، الثورة التي تستهدف تحرير الانسان وتوجيه طاقاته نحو تغيير العالم الذي يعيش فيه .

لقد تحدث باولو فرايري في كتابه عن الثورة كعمل يمارسه المقهورون من اجل تجاوز ظروف القهر واكتساب حريتهم وهم في هذه الممارسة يواجهون القاهرين الذين لا يريدون لهم ان يتحرروا بل يريدون لهم ان يستبطنو ظروف القهر ويعتبروها قدرا لا يمكن رده

ويرى فرايري ان الثورة بهذا المفهوم ليست منحة يقدمها القادة الافراد وذلك ان الافراد ان لم يبدأوا بتحرير انفسهم ، فلن يمكن للقادة ان تحررهم .